سلسلة فسيفساء

ياسمينة خضرا

القريبة كاف

رواية



القريبة كاف

روايــة
تأليف
ياسمينة خضرا
ترجمة: نـهلة بيضون

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود
للمزيد من كتبي على
https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

الفارابي - سيديا
الكتاب: القريبة كاف
المؤلف: ياسمينة خضرا
الترجمة: نـهلة بيضون
الناشران * دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/11 - الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com www.dar-alfarabi.com
* سيديا (SEDIA) فرع مجمع هاشت الفرنسي في الجزائر
ت: 21 00 48 21 (213) - 82 14 60 21 (213)
فاكس: 84 14 60 21 (213)
www.sedia-dz.com
الطبعة الأولى 2011
ISBN: 978-9953-71-652-7

إهداء

إلى أصدقائي في جمعية محبّي الأدب البوليسي
إلى المسافرين المدهشين الذين صادفتهم في الرحلةمن سان مالو إلى دابلن
إلى الأسبوع الزنجي في خيخون
إلى كل أصدقائي.

مقدمة

ثمة أشخاص لا يحالفهم التوفيق في شيء.
بسبب أسلوبهم الأخرق، اليد التي يمدونها إلى جارهم تقلع عينه، فيعربون عن أسفهم، ولكنهم يرفضون أن يضعوا قبضتهم في جيبهم. يرغبون أن يكونوا مفيدين، ويثابرون على حب الآخرين بالجملة، بلا معايير أو بلا مقابل، وأحياناً بصدق مسرف لا تبرّره سوى الحاجة المرضية إلى الإيمان بقدرتهم على العطاء رغم الحرمان الذي يكتنف وضعهم. لئن شابت نواياهم الحسنة الشوائب بسبب حماقاتهم، فلا يبدو أن نيتهم تتأثر جراء ذلك على الإطلاق. سوف يعمدون بعناد إلى إساءة القيام بالخير الذي يكنونه للآخرين على غرار سمك الشبق، بقبلته التي لا تنفصل عن عضته.
هكذا كانت تعتبرني القريبة كاف : كريهاً حتى في أريحيتي. ولئن كنت لا أغفر لها، فلأنها لم تفهم شيئاً على الإطلاق. ومن ثم، لم الغفران؟ فمنذ أن صار الكون كوناً، لم يرْقَ الغفران يوماً بذاك الذي يمنحه إلى مرتبة الحكيم العاقل. لا يغفر المرء إلا بداعي الجبن أو لنية مبيَّتة (أو لحساب يحسبه).
علام كنت ألوم القريبة ك. تحديداً؟ على عدم رؤيتها للأمور إلا من جانبها السيء؟ ماذا اقترحت عليها حقاً لكي أثنيها عن ذلك؟ الحركة الزائدة عن حدِّها أم الجملة التي في غير محلها؟ أخفقت في كل المساعي التي بذلتها لكي أستحقها. كانت نواياي محمودة ولكن كل ما فعلت لم يكن كافياً. إن الخير المصنوع بصورة سيئة هو إساءة لا تعذر لسببين، لإخفاقها أولاً، وللانتقاص الذي تتماهى معه ثانياً. أما الشر الذي ينفذ بجلده فهو نجاح خالص، وكل خيرات الأرض لن تبلغ مستوى كاحله.
بين القريبة كاف وبيني كانت تدور هذه المعركة. الخير السيء الصنع، الشر الحسن الصنع. لم يكن من الضروري تحديد من منا على خطأ، ومن منا على صواب، أين حصة الله وأين حصة الشيطان، أو تحديد موقع هذا أو ذاك من حقيقته ـ وما هي الحقيقة أصلاً؟ ـ، بل كان المهم المضي في اقتناعاتنا. لا يتعلق الصواب بما هو صائب بل بما يحقق هدفه. في هذا الاشتباك حتى الرمق الأخير، ليس المهم هو الصحيح بل الفعال. حين يصرع الشر الخير، فهذا هو الدليل على أن الخير قد أخفق. وإذا كان ذلك لا يطهِّر المنتصر من شواذاته، فهو لا ينقذ المهزوم كذلك.
ومع ذلك، كانت القريبة كاف جميلة. وحين أفكر فيها، تتوارى عيناها النجلاوان وراء قسوتها. من كانت؟ ملاكاً، شيطاناً، أم الإثنين معاً؟ ما هي الذكرى التي يجدر بي أن أحتفظ بها عنها؟ رقَّتها أم خسَّتها؟ في الحقيقة، بوسعي أن أحتفظ بكل شيء كما بوسعي أن ألفظ كل شيء. فيجب أن أرى، ويجب أن أقرِّر. فبقدر ما أتمتع بحرية نسيان هذه القصة، أتمتع بحرية سردها كما يحلو لي. إنها قصتي. أختمها بالعظة التي أريد. وبوسعي كذلك أن أعفيها من أية عظة. لا أؤمن شخصياً بالدروس والعبر. فأية منافسة لا يمكن أن تتقدم بدون أن يدوس المرء عليها. ذلك هو رأيي، وقيمته هي قيمته وأتحملها بالكامل. كما أتحمل مسؤولية القصة التي سوف تلي ذلك. قيمتها هي قيمتها، كذلك؛ أما سائر الأمور، الانطباعات التي سوف تثيرها أو الأسلوب في التعاطي معها، فآخر همِّي.

I

في أية ليلة من الحمى والهذيان،
من هي تلك الجالوتات التي أنجبتني
طويلاً وعديم الجدوى إلى هذا الحد؟
مایاکوفسكي

تعلمت منذ نعومة أظفاري أن أختبئ.
لم أكن خائفاً، ولا أحد كان يلاحقني.
أختبئ حالما أتوارى عن ناظري أمي.
يتراءى لي، كلما أشاحت ببصرها عني، أنني أختفي، وأكف عن الوجود.
أجهل ماذا نعني بقولنا إننا "نعبر إلى الجهة الأخرى من المرآة". ومع ذلك، فلو كان ثمة تعبير أوافق عليه تماماً لوصف الإحساس الذي يخالجني حين أكون وحيداً، فذلك هو بالضبط. يتراءى لي أنني أتحرك وراء مرآة بدون طبقة قصديرية؛ وبوسعي أن أرى بدون أن يفطن أحدهم إلى وجودي.
لم يكن ذلك الأمر يروقني.
لا بل كان يقض مضجعي.
لم أكن أعيش، لا، بل أهيم في دارتنا مثل روح ضاربة مدجَّنة، لا تثير لا الرعب ولا الفضول، بل، في بعض الأحيان، ضيقاً لم أفلح أبداً في تبيانه...
ثم جاءت كاف.
لم أشاهد يوماً حدقتين واسعتين مثل حدقتيها.
لم أعرف يوماً قلباً أقسى من قلبها.
كانت تلك الفتاة، لوحدها، تختصر الليل والنهار.

1

الزمن يمضي ولا ينتظر أحداً. وكل مراسي العالم لا تستطيع أن تمسك به. لا مرفأ يعود إليه. الزمن؛ إنه مجرد ريح تعبر ولا تعود أدراجها.
أسبِّح بسبحة اللحظة آلياً، مثل ساعة الحائط، معلناً عن الساعة بدون أن أتلكأ عندها.
لا أعيش بكل ما للكلمة من معنى؛ أكتفي بوجودي هنا، أخدود على درب، إسم على قيد محلي، لا تلهيني الغيوم التي تتجمَّع فوق الجبل، والنسمة التي تتلاعب وسط النتانة، والصبية الذين يتفتحون في الشارع، ونهيق الحمير.
أعتبر الصوت اعتداءً، وأخضع لنظرات الآخرين مثل اغتصاب، وأعرِّض نفسي للعنف كلما فتحت نافذتي على القرية.
لا أحبُّ الفراشات. ومع ذلك، لو أمكنها أن تفسح لي مكاناً في شرنقتها، لوهبتُها روحي وجسدي ولتغنيتُ بأمجادها حتى يوم الدين.
صباحي محزنٌ بقدر ما هو غث؛ إنه جزيرة ضائعة وسط العدول والعزوف. شمسه تحرقني، وآفاقه تصيبني بالغثيان. أنهض، ومن ثم ماذا؟ لأمضي إلى أين، لأفعل ماذا؟ مرآتي بدون طبقتها القصديرية هي قفصي الزجاجي. بوسعي أن أخبط عليها حتى يغمى علي، ولن يسمعني أحد. وأساساً، أنا لست موجوداً لأجل أحد. صباحي صحراءٌ أقفرتْ من أي مخلوق. لا يحمل لي شيئاً في طياته، لا أتوقع منه شيئاً؛ وهكذا، نكون قد تعادلنا.
ليلي محظية باردة وبريئة. قبلاتها قارصة واستيهاماتها غريبة. توافيني منذ غروب الشمس. بالطريقة نفسها. في الموضع نفسه. في اللحظة نفسها. بلا حياء وبلا تحفظ. مزعجة مثل نشوة تتمنَّع. تدنِّس ملاءاتي وجسدي مثل الخنزيرة. ثم تنسحب، متزامنة مع المد، وهي تجذب الغطاء إليها، متخلية عني وحيداً وعارياً، مثل دودة وحيدة، في عالم جنوني من "مشهد مألوف".
لا أكترث للحاق بالركب، والمضي إلى عثرات أخرى؛ لا أعبأ بترقب العودة الخلاصية لمسيح ما. البشر يضايقونني. الغدوات لا تغريني. خساسات الأرض لا تطالني. لا أهتم لحلم يموت أكثر من اهتمامي بورقة شجرة دلب لطخها الخريف. أبقى خلف مرآتي، حصناً منيعاً، ألوذ بلحظات وحدتي، وأصغي، وهو فضول لا يورِّطني في شيء...
أصغي إلى الليل يترسخ في روحي المؤرقة، والتجاعيد تشقِّق صدغي، ومغازل القلق البيضاء تنسج شبكتها حول أنفاسي.
غالباً ما يحدث لي، أسيراً للإرهاقات والأيمان المجهضة والسنوات الميتة، أن أتحرى العتمة بدون أن أعرف ما يدفعني إلى القيام بذلك، وأن أسهر طويلاً على الصمت مترصداً لا أدري ماذا بالضبط. أجهل لماذا أتيت إلى هذا الكون، ولماذا يتوجب علي أن أغادره. لم أطلب شيئاً. ليس لدي ما أعطيه. لا أفعل سوى الانزلاق نحو شيء سوف يفلت مني على الدوام.
توفي أبي عشية اليوم العظيم. كنت في الخامسة، وأنا من اكتشفه معلقاً على عقافة في الزريبة، عارياً من رأسه إلى أخمص قدميه، مفقوء العينين، وقضيبه في فمه. كانت البقرة قد وضعت للتو.

وكل صباح، مع انبلاج الفجر، أقفز من فراشي وأذهب لمشاهدة العجل الصغير يتغلب على نوبات الدوار التي تصيبه. كان حيواناً بديعاً، أسمر مثل الأرض المحروثة. في ذلك الصباح، رفض أن يقترب مني. كان يقف وراء أكوام التبن ويرتجف، مرعوباً على ما يبدو بسبب الجثة المعلقة في العقافة. لا أذكر كم بقيت مسمَّراً في مكاني. وافاني أحدهم، ووضع يديه على عيني، وأبعدني عن هذا الكابوس.

لم أرجع أبداً إلى الزريبة لكي أنعم بمشاهدة ارتعاشات العجل. لا مبرِّر بعد اليوم يدعوني لزيارته. اجتاحتني الريبة. لن أتعلق بعد اليوم بما ليس بوسعي أن أحافظ عليه.

لاحقاً، أدرك سكان القرية أنهم أخطأوا الظن في والدي. ولكن الأزهار على قبره الذي رُد إليه الاعتبار، وذكر اسمه والاعتراف به بعد رحيله، ونحيب الندَّابات وعويلهن، كل هذه المظاهر لم تفلح في إقناعي بأن الله وحده معصوم عن الخطأ.

لا أذكر أبي.

لم أتألم لغيابه.

ولكني لم أغفر.

2

كانت أمي ثرية.
إنها إلى حدٍّ ما "سيدة " دوار يتيم.
إنها تهيمن على كل شيء وعلى الجميع في قلب دارتها الشبيهة بالحصن، بين أنصاب ترمُّلها العظيم وإخضاع الضمائر المذنبة. يحني الناس رؤوسهم حين يخاطبونها، بل يكادون يخرون ساجدين أمامها. في البداية، كان الأمر يحرجها. ومع الوقت، طاب لها هذا الإسراف في التبجيل، وتملق المتزلفين، وطعم الامتيازات؛ فتنامت لديها متعة ماكرة بالإشراف على عالمها من عل لكي تحسن تمريغه في الوحل. لم يلبث ازدراؤها أن تحوَّل إلى بغضاء باردة. أظن أنها لم تغفر حقاً الهفوة التي أدت إلى إعدام زوجها على الإطلاق. وبعد عشرين عاماً، ما زال طيفه حاضراً، وهيمنته تطغى وتتعاظم. تمد أمي يدها نحوه أحياناً، ويبدو أنها تلامسه، فتضيء وجهها شعلة قادرة على إحراق القرية بحالها. أصبحت متطلبة وشرسة، لا شيء يفلت من نظرتها أو من الصاعقات التي تنهال منها على الذين يسيئون التصرف. انسحب الخدم الواحد تلو الآخر، بمن فيهم أولئك الذين خدموا منذ أجيال الكولونيل المتقاعد ماجيفو والسيدة بوفييه.
ظل البستاني وحده صامداً. لا أسرة يلوذ إليها. كان عجوزاً سقيماً، حضوره غير محسوس تحت قبعة القش التي يعتمرها، يتنقل بخطى مكتومة وكأنه يخشى أن يزعج الآخرين. كان مستوحداً ومتوارياً، لا يكترث له أحد، ولكن هذه اللامبالاة لا تضايقه البتة. كان لا يطلب الكثير، ويحب مخاطبة الأشجار، وكلبه أحياناً، ويقلِّم الأزهار بورع مذهل...
وافته المنية العام الماضي. رحل بدون ضجة مثل ظلٍّ ذهب لموافاة ظلمات النسيان.
منذ ذلك الحين، اجتاحت ممرات الحديقة الأشواك والأعشاب البرية.
لم تعلم أمي أبداً بوفاة البستاني. توفي خلال سفرها. ولدى عودتها، تصرَّفت كأن شيئاً لم يكن، وأظن أنها لم تنتبه حتى لرحيله.
أمي غامضة. توحي بأنها قادرة على الصمود بوجه المآسي. مات فيها شيءٌ ما في ذلك الصباح داخل الزريبة حيث كان العجل الصغير يتعلم الوقوف ثابتاً على قوائمه. لا أدري بالضبط ما هو ذلك الشيء، ولست حريصاً على معرفته. أعتبر أنه من شأنها... لم أباغتها يوماً تبكي. ولا مرة واحدة. ولا لحظة واحدة. بهيئتها الصلفة تحت شعرها المعقوص بتقشف، ونظرتها الحادة، وإيماءاتها الخاطفة، لا أذكر أنني لمحتها يوماً تبتسم لي كذلك. ومع ذلك، فالغريب أن أمي كانت تظهر، على حين غرة، حين تتكور القريبة كاف في أحضانها، حنان السيدة العذراء، ويتوهج وجهها الجامد القسمات توهجاً أشبه بهالة من نور.
لم تنطبع شفتاها يوماً على وجنتيَّ، ولا مسَّدت أناملها شعري. كما أنها كانت لا تضربني؛ ولا تحرمني شيئاً. نعيش معاً ولكن كلاً منا يتجاهل الآخر. أعجز عن التكهن بشعورها جراء ذلك؛ أما أنا فكنت أشعر كما لو أنني وصلت سهواً إلى سيرك غادره روَّاده؛ وأخجل بقدر المرات التي تضم فيها منصة النظارة مقاعد شاغرة.

3

تخليت عن طفولتي سريعاً. سئمتها. وكرهت المدرسة كثيراً. بأساتذتها المتحجِّرين وأوغادها. كان فيها مقعد طويل مطلي باللون الأخضر أسفل شجرة دلب. تقع قاعات الصفوف والفناء في الجهة الأخرى، بعيداً، فأكاد أظن نفسي في الشارع. يضج التلامذة ويتقافزون ويطاردون بعضهم بعضاً؛ ومن مقعدي، لا تفارقهم نظرتي. أثناء الاستراحة، أعتزل في منفاي الصغير الذي يستغرق الجرس وقتاً طويلاً لكي يصل إليه. وفي بعض الأحيان، تقع كرة على مقربة مني. ولكن لا أحد ينتبه إلى وجودي حين يقترب لاسترجاعها.

ثم كانت المدرسة المتوسطة في مدينة مجاورة. كم كانت كريهة سنوات المدرسة المتوسطة. احتفظت عنها بصور قليلة أجد نفسي فيها جالساً تحت سقيفة مهجورة، أو واقفاً في مكان ما، ويدي خلف ظهري، شارد الذهن، أو كذلك أحدق ساهياً في هرِّي.

ليست لدي صور كثيرة.

لدي شقيقة متزوجة أنسى اسمها أحياناً، وشقيق في الجيش، وهذا كل شيء. لا أستقبل ولا أزور أحداً. الجحيم هو الآخرون، بالتأكيد، إلا أن المعذب يملك حرية اختيار المحن. أقبع في ناووسي، بإخلاص، لا أحاول أن أزعج الشيطنة من حولي ولا أن أطردها. أمضي معظم وقتي خلف ستائر نافذتي، أخضع لحصار الفصول المتعاقبة. أتأمل الخريف يهين بساتيني والشتاء يعرِّيها. أتأمل الربيع يسخر مني بألاعيبه والصيف يصرعني بنوبات قيظه. ثم يتعاقب الخريف، فالشتاء، فالربيع... يا للبؤس! حياة تهرب بغباء، يوماً بعد يوم، ليلة بعد ليلة، على مراحل منتظمة، تتقطَّر في حالة من الكمون ـ طق! طق! طق! ـ، وتستثير الرغبة بالرقاد حتى يقبل الموت...

في الخارج، لشدة ما تقرقع البوابة بسبب الريح، تفقدني صوابي.

اليوم ـ كما بالأمس، وغداً، بالتأكيد ـ، أظل أتحرى العتمة بدون أن أعرف السبب، وأسهر على الصمت مترصداً لا أدري ماذا بالضبط. متصلباً في فراشي. أغمض عيني، وأشبك يديَّ على صدري، أصمت وأنتظر... ولكن الزمن لا ينتظر. إنه يبرع في افتضاح تقلب الأحزان الضائعة، أصم مثل القدر، أعمى مثل الردى.

ومن ثم، فليذهب الزمن إلى الجحيم! حين لا تكون القريبة كاف هنا، بالكاد تستحق الأمور أن يتلكأ عندها المرء.

4

من أعلى برجي، معلقاً بين عاطفة الذكرى وتفسخ الغياب، أحدق بلا كلل في القرية المتفككة أسفل التلة. أحاول أن أتصيد الأسرار خلف الأبواب الموصدة، أن أحبط المكائد في منعطفات الأزقة، ولا أفلح. أتخيل القوم العاديين، الواحد تلو الآخر، يقضمون حصتهم من العيش، بدون الكثير من الأوهام، يحزمون همومهم ويركنونها في مستودع الخيبات؛ ولا أرثي لحالهم.

للجبل الذي يلوح في البعيد سموٌّ مسلوخ. النهر الذي يفرزه لن يرفد البحر أبداً. إنها بقعة جدباء، متجهمة وعدائية، صنعت فقط للخضوع. أهالي القرية لا يحبونها. يلعنونها ليلاً نهاراً. في دوار يتيم، كل مصيبة ترتسم في الأفق إنما تنذر بأخواتها. لا العرق ولا الدم أفلحا في تعقيل تربة جاحدة. سواءً أثلجت أم أمطرت بَرَداً، فالحجارة تنتصر على مرِّ السنين بينما يقتات السم غيظاً في نظرة الفلاحين المنهوكة.

أعد مراراً وتكراراً الأكواخ القذرة، والأشجار الضامرة، والمواكب الجنائزية. توفي أحدهم مؤخراً. لم يحضر الكثيرون مراسم الدفن. حفنة من الرجال فقط مشت وراء عربة جر مترجحة، وكلبان أو ثلاثة كلاب في المقدمة، تحك الطريق بخطمها. الوقت الذي استغرقته دقيقة صمت، ثم توارى الجميع.

حين كنت أصغر سناً، كنت أضع عصابة سوداء، وأكحِّل عيني، وأقصد المقبرة أيام الجمعة. يدفن أحدهم لا محالة يوم الجمعة. إنه يوم للصلوات، ملائم لكي يسلم فيه المرء الروح. يؤكد الدجالون أن إبليس ينخزي في هذا اليوم. لم أكن أعبأ لا بإبليس ولا بالدجالين. فالجثامين وحدها كانت تبهرني. ولا يلبث التراب أن يهال على قبر حتى أتشوق لرؤية "الجثمان التالي".

إنه الزمن الذي كان حفارو القبور يتمتعون فيه بالكاريزما، والرفش الذي يبقر التراب ينفحني إحساساً بالبقاء على قيد الحياة... الزمن الذي كنت أهلل فيه لرؤيتهم ينفقون، أولئك الفظين ذوي الأسنان الصفراء الذين يسعون لإقناعي بأن رد الاعتبار إلى قبر يستحق العفو والمغفرة أكثر من الاعتراف بذنب. وعلى حين غرة، انتفت لدي الحاجة لحضور مراسم الدفن أيام الجمعة مع جثامينها المزرقة. كان الطقس يفسد مهابة اللحظة؛ التمتمات نفسها تتردد، ومظاهر الرياء نفسها تتكرر؛ فلم تعد مقنعة مع الوقت. يُرفعُ الجسد كما ترفعُ الجلسة؛ مات إنسان، إنها ليست نهاية العالم.

في البلدان المسلمة، لا تحضر النساء الدفن، فالدفن شأن الرجال. شأنهم حصراً. كان ذلك يغيظ القريبة كاف. فأكف، لوهلةٍ، عن الإحساس بالندم لأنني مسلم. كانت القريبة كاف تخال أن السماء بمتناول يدها، وأن الأرض ملك لها، وأن بوسعها أن تفعل ما يخطر ببالها؛ ولم يكن يزعجني أن أشاهدها متكدرة أحياناً... ومع ذلك، فالكون يقفر حين تغيب عني القريبة كاف، وتصبح جوقة الغابات مرثاة حين لا تكون هي التي تزقزق. الشمس، والقمر، والرعد، الكون، الكون بأسره، يفقد معناه حين تصمت القريبة كاف.

القريبة كاف هي علّة وجودي. ضحكتها سمفونية، وبريق عينيها أخاذ. ترمقني بنظرتها، فيختلج الفينيق في رماده. ويكفي أن تلامسها أطراف أصابعي لكي أتحسَّس نبض الأبدية.
بدونها، لست سوى كدمة تتورَّم، سوى بلية تتعفن. كانت فجري الشمالي؛ وكنت أعيش شتاء حقيقياً خلال نوبات حردها...
ذهبتْ كما يبتعد الزمن حين تتوقف ساعة الحائط بدون أن تقول لي شيئاً أو ترمقني بنظرة. ومنذ ذلك الحين، لا يوم جمعة، ولا يوم أحد؛ فقط النهار والليل؛ إفلاس اللامقبول وعجز اللامعقول، وذلك الشيء الذي يلتصق بجسدي مثل رداء نيسوس (1).

5

من نافذتي، أراقب القرية التي تولي ظهرها للجبل. يتناهى إلى مسمعي، وأنا أراقبها، ضجيج الأطفال. من بين كل أبناء الله، إنهم الأكثر صخباً. لقد أرغموا على الرحيل حتى الأولياء الصالحين.
تقرقر جرَّارة بمحاذاة النهر. ينتفض سائقها على مقعده، متشبثاً بالمقود، وقد انزلقت عمامته على وجهه. يذهب بعض الفلاحين على الضفة الأخرى إلى البساتين حيث يمضون النهار وهم يترقبون المساء للعودة. في دوار يتيم، يرتبط الطموح فقط بطول العمر.
على طريق المقبرة، يلهو شاب مع كلبه. يرمي بعيداً غصناً يسارع الحيوان لإحضاره. يتدلى لسان الكلب، ويتراقص ذيله فرحاً، مبهوراً بالحركة الأزلية التي يقوم بها سيده. يرتمي أحدهما في أحضان الآخر أحياناً، ويتبادلان ضربات ودودة...
لطالما كرهتُ هرِّي. استقر بلا حياء في حميميتي بعد أن تسلل إليها عنوة، متيقناً من أنه يضعني أمام الأمر الواقع. كنت أحسده لأنه ينعم بالرعاية والاهتمام لمجرد أنه يعلم بالضبط متى يتمدَّد على مقربة مني، ويحوِّل استجابة غريزية إلى مداعبة لطيفة.
لا أفضل من كلب لبناء إنسان. لو حصلتُ على كلب في طفولتي، لربما صنعني بشكل مختلف. ولكن القدر فرض عليَّ هذا الهرّ المرائي والأعرج الذي لم يكن يتمتع حتى بسرعة البديهة ليكون حاضراً حين تتخفف أصابعي في العتمة.
قالت أمي وهي تقف في فرجة الباب: " باب العلية يثير أعصابي."
تلتف خصلات شعرها على كتفيها. كان ذلك فألاً سيئاً في اعتقادها. تحرص على شعرها بقدر حرصها على المسيرة المهنية لأمين. تلوح، بشعرها الأشعث، ملكة بدون تاجها، ولا تلقي للأمر بالاً. النور، خلفها، يتلاعب باستدارات هامتها. أمي تذبل. بلا رحمة. الهالات تحبس نظرتها؛ أطراف فمها تراخت، مهددة وقع أوامر الماضي وزعيقه. ما أرذل تآكل السنين!
ابتعدتْ. على حين غرة. كما لو أن الكوة في آخر الرواق شفطتها. فقدت مشيتها، الصارمة عادة، ثقتها، وأضفيت عليها هسهسة ثوبها هيئة الأشباح. يتراءى لي أنها سوف تختفي عن الأنظار لو رنتْ إليها يدي.
غالباً ما تساءلت إن كان لا يجدر بي أن أمدَّ يدي. لم أجرؤ يوماً أن أتحقق من الأمر.

6

قمت بتزييت مفاصل باب العلية، ثم ذهبت إلى غرفة شقيقي. مثلما فعلت البارحة والأيام السابقة، فتحت النوافذ، ولمعتُ الأثاث. كدتُ سهواً أن أجلس على أريكته . تمقت أمي أن يعبث أحدهم بأغراض ابنها النابغة. حتى القريبة كاف تتحاشى زيارة هذا المكان. فغرفة شقيقي أكثر من مدينة محظورة. كانت معبداً.

تشعر أمي بالتعاسة حين يهملها فلذة كبدها. لا تدري ماذا تفعل بيديها وكيف تهتدي. في بعض الأحيان، تأتي إلى غرفته، تغدق حنانها على صوره، تمسِّد بزاته، وتتنشق وسائده...

كنا على وفاق، أنا وشقيقي. كان لا يكف عن تطويق كتفي بذراعه، ولشدة ما كان يحبني، أحسستُ بالريبة. ظننت أنه سوف يعافني، بدوره ؛ ولكنني أخطأت الظن.

لم يكن يحسب، ولا يلومني على شيء يذكر. جريئاً كان مثل يد ويعرف كيف يثير اهتمامي. عيناه شعاع النور الوحيد القادر على تبديد اكفهرار طفولتي. ولكنهما لا تذيبان عنها الجليد، بل تحملان إليها القليل من الضياء؛ ليس بالقدر الكافي لصنع الربيع، إنما بما يكفي لأحلم به.

كنت أرتاح برفقته. وتعلمت معه الكثير من الأمور. لو بقي مدة أطول، فصلاً إضافياً أو بضع سنوات، لما انتهى بي المطاف حيث أصبحت اليوم.

بين عشية وضحاها، تخلى عني شقيقي. التحق بالمدرسة الحربية. لم أشفَ أبداً من هذا الهجران. رحت أرمي بنفسي على سريري مثلما يرمي المرء نفسه في بئر، متيقناً أن لا أحد سوف يأتي للبحث عني.

كان شقيقي يعود في الإجازة، متحزِّماً في بزته الرمادية، وقبعته المنتصبة على صدغه، وذقنه المستقيم. حين يصل، يرمقني دائماً بتلك النظرة التي تعتذر لتخليها عني؛ وحين يغادر، لا يستطيع التخلص من تكشيرة مرتبكة تعتذر لاضطرارها، مرة أخرى، إلى مفارقتي. ينتظر إيماءة، أبسط دليل على عدم استيائي منه، وإذ ينفد صبر أمي وراء المقود، يأمل دائماً، وهو يلتفت إلى المقعد الخلفي، أن يلمح هذه الإشارة التي لم أفلح يوماً في التعبير عنها. كنت أشاهد السيارة تبتعد، واقفاً أمام مدخل البيت، مرتعداً من رأسي إلى أخمص قدمي، حاقداً بكل قواي على ذلك الذراع الذي لا يحسن سوى احتضاني بقوة كما لو كنت سأتطاير.

أذكر أمسية صعدت فيها إلى العلية لتشويه صورته التي رسمتها لأجله، فيما الجميع يحتفل في الدارة بنجمته الأولى، نجمة الملازم. عقدت النية أن أهديه إياها بهذه المناسبة، ولكن المدعوين أفسدوا كل شيء؛ كانوا يقهقهون أكثر من اللازم، ولا يكفون عن تهنئته، بل لقد بلغ ببعضهم التمادي أن نادوه "حضرة اللواء". كانت أمي تصلح ربطة عنقه كلما قبلته.

التفت فجأة، وترنحت نظرته أمام نظرتي. وسرعان ما خمدت فرحته، فسارعت إلى الاختفاء من حفلته .

طوال الأمسية، بقيت مقرفصاً على حافة الكوة، مثل طير الظلام. شاهدت السيارات تغادر تباعاً. كان رأسي يضج بالضحكات والدعابات وصفيق أبواب السيارات. وفيما بعد، حين عادت السكينة

إلى الدار، وافت أمي فلذة كبدها في الفناء، وتشابكت يداهما وهما يتنزهان حتى طلوع الفجر. كانت يداهما التي تلتحم إحداهما بالأخرى تلوحان يداً واحدة، وفي عناقهما إيمان يتسامى على كافة الأديان.

من مجثمي، شاهدتهما، وأنا أعذب أصابعي، يكتفيان الواحد بالآخر. بصقت، غيوراً وعديم الجدوى، في السماء التي لا تخصني نجمة واحدة فيها. ثم ساورتني الرغبة، وقد انحنيت قليلاً فوق الحافة، أن أرمي بنفسي في الفراغ ـ أتحداك !، كانت القريبة كاف تستفزني. أتحداك! أتحداك!...

تخيلتُ في تلك الليلة أن أبي يُبعثُ إلى الحياة. لم أكن أشتاق إليه؛ كان ذلك بلا شك أسلوباً، مثل غيره من الأساليب للتواصل مع وحدته، هو . تخيلت نفسي أمام قبره أنتظر أن يرتعش الغبار. لم ألمح شيئاً يحدث، فبلغ بي الكفر أن تخيلت نفسي الله قابعاً في الهلام الكوكبي، متربعاً على مجرَّة، أدفىء يدي المخدرتين بألسنة لهيب الجحيم، وأولي ظهري لقطعة البراز المتقيحة التي تدور على نفسها مثل البرغي إلى ما لا نهاية، وتملأها عثاً إنسانية كثيرة التناسل وانتحارية تشوه صورتي بصلبها لأنبيائي ومقاطعتها لفراديسي. ومرة أخرى، انتابني فجأة، وأنا أشرف على المساحة الشاسعة لروائعي، أسيراً بائساً لحزن بشري، الخوف من الأمور التي أخلقها والتي تفلت مني، الخوف من العدم الذي يهدد أعمالي، الخوف من فكرة البقاء وحيداً حين يفنى الوجود.

7

يصعب على الريف التصديق بأن الرمضاء التي تسلقه منذ الصباح بوسعها أن تخلد إلى السكينة مع حلول المساء. انسحب طنين الأرض الساخنة شيئاً فشيئاً أمام هسهسة الدالية. في شبه العتمة التي تتميز بأبعادها المخيفة، رغم تفاهة ليلة تناست أحلامها، يبدو أن الدار تنكمش على نفسها.

أخرجت أمي كرسيها الهزاز إلى الشرفة. راحت تراقب، بشعرها المسترسل على ظهرها، دوريين يلهوان قرب النافورة. ترقد الرسائل الأثيرة لديها في حضنها، تميزها الأشرطة البيضاء التي تحزمها بها. بين الفينة والفينة، تتشبث يداها الحليبيتان ببضعة مغلفات، ويستعير تعبير السيدة الحديدية المرتسم على وجهها من الغروب ثنية من لثامه.

من قبل، كانت تتلقى بانتظام أخباراً عن ابنها. حالما تتعرف إلى خط أمين، يتوهج محياها ببهجة تجرحني لشدة ما تكون عارمة. تمر أمامي، مستغرقة في القراءة، بكل ما للاستغراق من معنى. لو أعولت، أو قلبت الأثاث، أو صفقت الأبواب، أو حطمت زجاج النوافذ، لما سمعتني. تتحول أمي، حالما تغرق في رسالة من أمين، إلى أرض غريبة.

ولكن ساعي البريد يخشى أن يصادف نظرتها منذ بضعة أيام، فالإبن النابغة لم يعد يجيب على رسائلها.

قلت لها: ـ إنه غروب جميل.

جفلتْ. حين تكون ردة فعل أمي على هذا النحو، أخجل، وتنطفئ في ذهني الكلمات التي كنت أنتقيها لأجلها مثل الشرر.

ـ ها! هذا أنت...

تشيح ببصرها. بالنسبة إلي، إنها البحرة التي تطبق على الرصيف. تعب الدوريان. ذهبا لموافاة أقرانهما في البساتين. في البعيد، عبر البوابة المشرعة، بوسع المرء أن يلمح مجموعة من النساء اللواتي يصعدن بمحاذاة مجرى النهر، وقد وضعن على رؤوسهن كومة من الغسيل، والمولود الأخير على ظهرهن. يسبقهن بعض الصبية الصاخبين والموفورين حيوية على نحو يدعو للدهشة.

سألتها: ـ أتظنين أن للأمر علاقة بالمناورات؟

تخفي الرسائل تحت شالها. بيد تختلس الحركة اختلاساً. تتوعدني نظرتها لوهلة، فأنزوي أتأمل أصابعي.

جازفت بالقول: ـ إننا لا نجد كلاماً نتبادله ولكنه حين يتأخر في العودة إلى الدار...

تبعد خصلة عن جبينها، متذمرة.

قالت : ـ إنه يرهق نفسه بالعمل، هو .

ـ إنه يحبُّ عمله وطموحه كبير. إنه ضابط ممتاز. أشعر بأنه سوف يحصل على ترقية عما قريب.

تبادرني متطيرة: ـ لا يجوز الكلام في هذه الأمور قبل حدوثها.

من جديد، تحدجني عيناها.

جلستُ على الدرجة الأخيرة من سلم المدخل، بحيث لا تكون هي خلفي أو قبالتي؛ على هذا النحو، لا يخالجني الإحساس أنني أزعجها أو أنني لا أكترث لها.
هبت ريح قزمة وسط الباحة، وقامت ببضع خطوات راقصة محمومة، ثم اختفت.
تعرَّقت يداي، وراحت أرنبة أنفي تحكني. كنت لا أشعر بالارتياح.
استشاطت أمي غضباً على حين غرة:
ـ أنا أمه ؛ ولدي عليه حقوق...
أحنيتُ رأسي.
أدركت أساها، ولم أجرؤ أن أشاطرها إياه؛ فالجميع ينتقد تصرفاتي الخرقاء.
تفتح رسائلها، راجية أن تجد فيها بعض العزاء والسكينة. ترتعش يداها وتتحجر ملامحها. وفجأة، تنهض وتمضي. الوقت الذي استغرقته لرفع رأسي، لم تعد ماثلة أمام ناظري. وحده الكرسي الهزاز ظل يتأرجح مطلقاً أنيناً واهناً. لم يسبق لي أن رأيت مقعداً شاغراً مثقلاً إلى هذا الحد باللوم مثلما كان في تلك اللحظة.

8

لم أتلق في حياتي رسالة.
أعلنت القريبة كاف، حين علمت بذلك، أن هذا الأمر لا يدهشها على الإطلاق.
كنت قد بلغت الرابعة عشرة، وإذا كان هذا الأمر لا يعني الكثير، فإغفاله لا يجدي نفعاً.
كان يوماً شباطياً فظاً ومباغتاً. أمطرتْ في الصباح، وكانت الشمس عصراً تجعل الدخان يتصاعد من الريف. كنا على الشرفة، وأمي موجودة، وكذلك القريبة كاف، وذلك اليوم الشباطي، إلا أن وجوده لا يحتسب.
سألت أمي القريبة كاف: ـ ما أكثر ما يجلب لك السرور؟
فبادرتها القريبة كاف، مرائية مثل الزكام:
ـ لم يحنْ عيد مولدي بعد.
جذبتها أمي من كتفيها لكي تتأملها:
ـ أنت تولدين كلما أراك. إنني ذاهبة إلى المدينة، ولا أنوي أن أعود منها خالية الوفاض. فقولي لي ما أكثر ما يجلب لك السرور؟
تدللت القريبة كاف، وهي تسترق نظرة ثعبانية صوبي: ـ أنت يا خالتي الغالية.
ضمَّتها أمي المزهوَّة بشدة إلى صدرها، ولشدة ما ضمتها، تمنيتُ لو تخنقها. كنت أبذل جهداً فظيعاً، مسمراً على درجة السلم، محني الرأس، كي لا أنظر إليهما.
لم تكن القريبة كاف تنتظر سوى ذلك لكي تصوِّب نحوي تكشيرات قاتلة من فوق كتف أمي.
اقتربت مني بعد أن ذهبت أمي إلى المدينة.
فابتعد الريف خطوة، وحبس الهواء أنفاسه.
سألتني: ـ وأنت، ما أكثر ما يجلب لك السرور؟
لا أدري لماذا أجبتها " ربما رسالة "... فتحمست. كنت لا أجيب عادة. فأمسكت بيدي. كنت كشفت لها عن أكثر أسراري وطأة لأجل حركتها هذه. حين تمسك القريبة كاف بيدك، تصبح مصيرك.
ـ أرأيت؟ كنت على يقين أنك لست عديم الإحساس بكل شيء.
ارتبكت.
انحنت علي، وكان نفسُها يتطاير حول وجهي.
ـ رسالة ممَّن؟
هززتُ كتفي لامبالياً.
ـ من عشيقتك؟
-...
ـ ظننتُ أنك تثق بي.
ـ لم أتغير.
ـ قل لي إذاً، ممن تحب أن تتلقى رسالة؟

تراءى لي أنني أضْمُرُ شيئاً فشيئاً كلما اجتاحتني .
ـ أترى؟ أنت لا تبوح لي بأسرارك، وهذا الدليل على أنك تكذب علي دائماً.
ـ لم أكذب عليك يوماً.
ـ لا شيء يرغمني على تصديق كلامك. من قبل، كنت لا تتردد لا بل تبتهج حين تبوح لي بمكنونات قلبك. ولكنك تغيرت.
ـ أنت تخطئين الظن.
فألحَّت : ـ قل لي ممَّن؟
ـ من أي كان. رسالة تحمل طابعاً مختوماً وعليها اسمي. ولا فرق من أي بلد أتت، أو من أرسلها، أو عدد الأسابيع التي استغرقت لتصل إلي.
التمعت عينا القريبة كاف التي سألتني عما أرجو أن أجده في هذه الرسالة. أجبتها أنني لن أفتحها لو وصلتني. سأحتفظ بها ملصقة، وأكتفي بإخراجها بين الحين والآخر من درجي لأداعبها.
ـ ألن تسعى حتى لمعرفة محتواها؟
ـ كلا.
انكفأت، مستغربة ومستمتعة، لكي تتحقَّق من جديتي. ثم سخرت مني، ووعدت أن ترسل لي بطاقة بريدية عارية لمجرَّد أن تسبب لي الضيق والحرج.

9

تذكِّر الشمس بشبكة عنكبوتية تتظاهر في قلبها سحابة أنها ذبابة وقعت في المصيدة. أنتظر بلا جدوى، مرتفقاً نافذتي، أن تهب نسمة وتمنحني بعض الطراوة. لا نسمة، لا شطبة. تشبه الأوراق، على الأشجار، آلاف الأفكار الثابتة.
علا صوت المؤذن. اختارت أمي هذه اللحظة المحددة للعودة من المدينة. ركنت سيارتها قرب النافورة التي يسهر عليها ملاك من الجص. أوصاها الإمام بالتخلص من التمثال لأن أحد الأحاديث الصحيحة ينص على أن الملائكة لا تدخل إلى بيت فيه كلاب أو أصنام. أجابته أمي أن قريبتها كاف هي ملاكها، وأن ذلك يكفيها. فاضطرم وجه الإمام ولم يضف شيئاً.
تضع أمي منديلاً كشفياً حول عنقها، مما يعني أن الناشطين في المدينة كرَّموها مرة أخرى.
كان لدي منديل كشفي فيما مضى. أهداني إياه شقيقي. كنت لا أضعه، ولكن حيازته تعني لي الكثير. أخفيته في مخبأ داخل خزانتي، وكلي ثقة أن لا أحد بوسعه أن يعثر عليه. لا أدري بأي سحر ساحر اكتشفت القريبة كاف مكانه. أعجبها، وشاءت الاحتفاظ به. لوددت لو تتملقني قليلاً، وتحملني على الظن أنني كنت قادراً على العطاء . تظاهرت أنني أطالبها به، فرمته في وجهي، ودفعتني إلى الحائط زاعقة:
ـ لم أطلب منك القمر. هيا، التهمها، التهم خرقتك القذرة، وإياك أن تخاطبني بعد اليوم.
أفحمتني بكلامها. لم أكن أرغب أن يجري ما جرى، لم تفهمني. يصيبني الهلع حين أراها توبخني. خطر ببالي، وهي تتوعدني ملوِّحة بإصبعها، أنني ما كنت لأفقد قيمتي لو صنع مني الله أي شيء إلا ذاك الأراجوز الذي تفككه طفلة في التاسعة من عمرها.
اجتازت أمي البهو. بلمح البصر. كانت تسرع دائماً في العودة إلى جناحها، وتصفق بابها بوجهي. باشرت بحلِّ منديلها وهي تصعد السلم. حركاتها متقطعة، ونظرتها تلومني.
صعدت خلفها. توقفتْ وسط الدرجات، متشنجة الفكين، وقد ابيضت أصابعها عند المفاصل.
ـ كن لطيفاً. لقد نسيت حقيبة يدي في تابلوه السيارة.
ـ حالاً، أمي.
انقبضت مؤخرة عنقها لكأنها تجزع حين أدعوها "أمي".
ذهبت لإحضار حقيبة اليد، واضطررت للانتظار ريثما تخرج من الحمام لتسليمها إياه. صادفتي واقفاً وسط غرفتها وانقبض فمها كذلك. إنها تعتبر غرفتها عالمها الخاص، وتمقت أن يدخلها أحدهم بلا استئذان. كان شقيقي يستريح فيها على الديوان ولا يخلع حذاءه. يتبادلان الحديث بصوت مرتفع، هو يتصفح ألبوماً عائلياً للصور وهي تلتهمه بعينيها. في بعض الأحيان، تستلقي على السرير، متدثرة بمبذلها، وتتركه يدلك كتفيها. يخبرها عن المدرسة الحربية، وأسلوب مدرِّبيه وصرامتهم، وتعدِّد له المشاريع العظيمة التي تعوِّل عليه لتحقيقها. وبين الحين والآخر، تأتي ضحكة لتؤكد خلوتهما،ضحكة صافية أصيلة، ضحكة كائنين مقرَّبين الواحد من الآخر للغاية، يكتفيان بسعادة كونهما معاً. أماً وابنها بكل ما للرموز من شعارية...

وبينما كانا يتحدان وينصهران، أبقى في الرواق، موارباً ، أرمقهما يتجاهلان وجودي لساعات طويلة، أنا الذي لا أدعهما يبتعدان عن ناظري ولو للحظة واحدة.
ـ ماذا تريد؟
ـ أحضرت لك حقيبة يدك.
بيدها، أومأت لي أن أضعها أينما كان. سارعت ووضعتها على المنضدة قرب سريرها، بحرص وعناية.
ـ أتحتاجين شيئاً آخر، أمي؟
ـ هل اتصل أحدهم؟
ـ لم يتصل أحد.
هزت رأسها.
صرفتني: ـ يمكنك أن تنصرف.
أحنيت رأسي موافقاً، وهممتُ بالانسحاب.
نادتني: أمين.
أمي؟
كان أمين إسم شقيقي. كانت تعتذر من قبل حين تخطئ على هذا النحو وتصوِّب قولها. ثم، لعلها سئمت على الأرجح اضطرارها، كلمت تكرَّرت هذه الزلة، إلى تصحيح كلامها كل مرة.
خلال جزء من ثانية، لاحت لي نظرتها لا تقاس. كنت أظن في طفولتي أن أمي ساحرة، فقد كانت على علم بكل ما يحاك في الدار.
ـ أمتأكد أنت أن كل شيء على ما يرام؟
ـ أظن ذلك. لماذا، هل فعلت شيئاً يا أمي؟
قالت وهي تولي لي ظهرها: ـ أردت فقط أن أعرف.
حتى هبوط المساء، في قاع غرفتي، لم أكف عن التساؤل، منقوعاً ببرودة تعرُّقاتي، أين أخطأت، ولماذا كانت أمي تود أن تعرف إن كنت متأكداً أن كل الأمور على ما يرام...

10

سنونوة واحدة لا تصنع الربيع، ووعد واحد لا يصنع السعادة. شقيقي يصنعهما معاً. عندما يعود إلى الدار، يرقيه من شياطينه القديمة.

منذ مطلع الفجر، قبل أن يلد الأفق عودته، تجتاح الكون حمى غير معهودة، لكأن الآلهة دخلت في حالة انخطاف. تروح العصافير تزقزق حتى يبحَّ صوتها، وتتوتر كلاب القرية؛ وفي الهواء المثقل بحضور غير مباح، يخال المرء أنه يلمح طلائع حدث زلزالي. ها هي خطوات أمي تنسكب في كل مكان. لا تكف تصفق الأبواب وتنادي خدماً تشتتوا منذ عهد بعيد بسبب انتهاكاتها وتلاحق صرخاتها عبر الأروقة. جاءت مرتين إلى غرفتي لتراني أحلُّ محل الأثاث، مصعوقة بلامبالاتي في مثل هذا اليوم ، وهو اليوم الوحيد الذي أحسن الله صنعه لأن فلذة كبدها اختاره ليعود إلى الدار.

ها هو أمين في باحة الدار، بهياً في بزة القائد، وقد حجب سمو قامته السماء والأرض.

لم تصدق أمي عينيها. كانت تترقب هذه اللحظة بألم، ويزيد ألمها بعد أن أصبح ابنها أمامها. كانت عيناها ولادة؛ ويداها المتشابكتان تذكران بالعذراء التي تصلي. لم تكن تقوى على التقدم أو التراجع. ترنحت، تأرجحت، تعثرت؛ كانت تبالغ.

ثم انتهى مخاضها دفعة واحدة:

- يا بطلي!

وسالت أمي، تدفقت كالشلال؛ تحولت كلها إلى مياه تبقبق، وأمواج تتلاطم، وبحرٍ يهتاج. يداها الجموحتان عادةً والنائيتان، يداها أنهارٌ، وذراعاها سيولٌ؛ أضحت أمي يمَّاً شاسعاً.

هرع أحدهما نحو الآخر، ودخل فيه، كمذنَّبين في صدام هائل جعلت ذبذبته الجدران والتلة والأفق تنكفئ لتطهير المساحة حولهما.

- حبيبي...

- أمي...

- بطلي...

- ماما...

- حبيبي...

- أمي...

- بطلي...

- ماما...

ولكن أمين لم يأت بمفرده. حين ينفصل نجمان الواحد عن الآخر، يستعيد الكون غثاثته. تنازلت أمي ونظرت من فوق كتف ابنها، فاكتشفت غريمة لها. وسرعان ما تحطمت المرآة وفكَّ السحر. أصلح أمين ربطة عنقه، وذهب لإحضار رفيقته التي تنتظر في السيارة، ودفعها بكثير من الرقة نحو السيدة الحديدية:

- أمي، أقدم لك أمل.

احتفظت أمي برباطة جأشها وبيدها.
قابلت أمل هذا الرفض ببرودة أعصاب. كانت تتحلى بصفاقة صباها؛ وعيناها جائعتان للغزوات.
- كان بوسعك أن تعلمني.
ـ أردت أن أفاجئك.
- هذا صحيح، فقد فوجئت، بشرائط ترقيتك.
ما كاد شقيقي يولي ظهره حتى ارتجلت أمي سحنة شمعية.
همست في أذن الشابة: ـ أنت تضيعين وقتك سدى يا حلوة.
بعد الإشهار عن هذه العداوة، استرجعت عظمتها، وسارعت للحاق بذاك الذي عاد إليها.
جاء إلى غرفتي، وعانقني. لا أدري ما إذا جلس على السرير أو ظل واقفاً؛ لا أذكر. أذكر فقط عينيه بنقاوتهما الطاهرة؛ عينيه اللتين ترتبكان. وعلى الفور، نادته أمي وسلبته مني.
كان الوقت ظهراً. إنها الساعة التي تعلق فيها دوار يتيم اختلاجاتها، فتتلاشى الهامات، وتخرس الكلاب، ويتوقف الزمن؛ وبلمح البصر، تفقد البلدة حيويتها.
نصبت أمي المائدة على الشرفة، ووضعت ثلاثة أطباق. قرَّبت كرسياً من كرسيها، وأبعدت الكرسي الآخر قدر المستطاع؛ فهمَّشت الشابة على هذا النحو. ترفض أمي أن تتقبلها على الرغم من المديح الذي يقوله شقيقي عنها، وتعتبر أنها قد خدعت.
لم تدعوني لموافاتهم. أوضحت أن ذلك مستحيل، وكان هذا التوضيح كافياً.
غمست أمي ملعقتها في طبقها، وحركت الحساء بيد شاردة. أعلنت بعد تأمل يصعب للمرء أن يسبر قراره:
ـ لا يمكن للمرء أن يطارد أرنبين معاً.
وضع شقيقي سكينه على طرف طبقه، ومسح شفتيه بالفوطة.
ـ ماذا تعنين؟
ـ ركز على مهنتك أولاً.
ـ هكذا إذاً.
ـ تماماً.
ـ أمي، ماذا تعني بالضبط المهنة بالنسبة إليك؟
ـ ها أنت تتكلم مثل أي شخص. ما زلت شاباً لتتورط بأسرة صغيرة. في سنك، حين يحصل المرء تحديداً على تقدير رؤسائه، عليه أن يبذل المزيد من الجهد، أن يقنع الرؤساء ويستميلهم. الكولونيل يلهج بالثناء بشأنك. وبمزيد من الانضباط، ومع تنحيك عن مواطن الضعف البشرية الصغيرة التي تلحق الأذى أكثر مما تجلب الخير في كل الأحوال، أنا على يقين أنك ستصل إلى أعلى من الطائرات المطاردة التي تقودها.
ـ أمي، أرجوك، الثكنة ليست الدير. وقد أنجب بعض الجنرالات الكثير من الأطفال.
ـ لم تصبح جنرالاً بعد.
تواصل الغداء وسط صمت كوكبي.

راقبت أمي حركات الدخيلة، ونيتها الظاهرة أن تربكها حتى تشرق بعظمة. لم تخضع الشابة للترهيب. من الواضح أنها ليست معركتها الأولى، وأنها تحارب على أرضها، وبأسلحة من اختيارها. أما الضابط فابتسم، مستمتعاً ومزهواً لأنه محط كل هذه المطامع. غفر للواحدة واعتذر من الأخرى، متنازلاً، على شفير الخيلاء والغطرسة؛ إنه طفل مدلل.

11

أمل جميلة جمال النساء المصنوعات للآخرين. حين تنهض باكراً، بالكاد تترك شيئاً للنهار، مثلها مثل القريبة كاف بعض الشيء، تعيد إلى الدارة ما اختلسه منها التاريخ.
إنها تذكر، وهي جالسة تحت شجرة الخرنوب، بثمرة مقدسة ألقاها الغصن أرضاً. إنها تطالع اليوم ديواناً شعرياً. وكلما قلبت الصفحة، يرغب المرء أن يفعل مثلها. بين الفينة والأخرى، يهمس شقيقي في أذنها؛ فتقهقه أمل قهقهة من النقاء بحيث أنني لو ألبست الحفلة شريطاً تزيينياً، لتحلى بألقها.
ولد شقيقي ليكون سعيداً. وضعت الصدفة الحظوظ كلها إلى جانبه، بما في ذلك حظوظي. ولكن بعض التوزيعات لا يجب إعادة النظر فيها؛ وأفضل برهان على الحب عدم الاعتراض على أي شيء.
كانا يؤلفان ثنائياً رائعاً يبدو أن أحدهما خلق لأجل الآخر، وهما يدركان ذلك كل الإدراك. لا عاصفة، لا إعصار يبدو أنه قادر على تحدي مشروعهما، وأقله على إفساده في ظل شجرة الخرنوب، يسمعان أنفسهما يحلمان؛ هي تتصفح قصائدها كزهرة الربيع، وهو يماشي القافية بحاجبيه اللذين يقطبهما لكأن الديوان كتب لهما خصيصاً. إنه يشبهها شبهاً يثير الالتباس.
لا أقول ذلك لكي أفسد فرحتهما، ولكني لطالما اعتبرت أن للكتب وظيفة المرامد الجنائزية التي تضم رماد الأمور الحميمية التي يظن المرء أنه يستحقها، وهي أسرار يتبين أننا لا نستحق حراستها. لقد قرأت الكثير من الكتب في مراهقتي، ثم في سنواتي العشرين. لعلني أسعى إلى تدجين الشيطنة الأخرى، شيطنة الكتاب ـ أي أولئك الذين يظنون أنفسهم، بسبب إحباطهم جراء واقع نثري، قادرين على التحرر منه باستعارة بعضٍ من أباطيل الأساطير وديمومتها. كلما قرأت، تبين لي أن الكتابة تمرين انهزامي ومحاولة للهروب إلى الأمام، وازدواجية شخصية مثيرة للشفقة على وجه الخصوص؛ وأنها التعلم بامتياز لأكثر الاستيلاءات خفية. كنت أقرأ كما ينبش المرء حقائق مكروهة، كما ينبش أطياف عذابه حتى أنني لم أعد أعلم، مع استنزاف الوقت، من كان يسكن من، ومن كان غباراً ومن كان دخاناً، ومن كان جسداً ومن كان روحاً. على غرار الكتاب، شئت بدوري أن أصبح شخصيتي، وهو أسلوب مهيب لا ريب إنما لا يقل جرأة لكي يكون المرء إلهه الخاص. تناولت دفتراً مدرسياً ورحت أملأه بنصوص نثرية لا تنتهي. لم أكن أراجع ما أكتب. حالما طرد عالمي الباطني، مثل شيء يلفظه المرء، خلف ذلك عندي مذاقاً فاسداً. كما حين تكذب القريبة كاف. وبعد أن أغلقت الديوان، دفنته وسط الأشياء القديمة في العلية لكي لا أقربه بعد اليوم.
لن أفهم أبداً لماذا يرفض شقيقي وصديقته أن يغلقا ديوانهما، ولماذا يستسيغان هذه القصائد ببراءتها المقلقة التي تتابع البحث في النجوم عما هو بمتناول اليد.
تشغل أمل الغرفة في آخر الرواق، قبالة غرفة أمي. أصرَّت أمي على أن تشغلها الشابة. حرصت أن تراقبها، وأن تحمي صغيرها. كانت أقل هسهسة تنذرها، إذ تركت بابها مفتوحاً. ومع ذلك، كنت أمضي كل ليلة للنوم قرب أمل. أستقر على الكرسي قرب سريرها، أغار من ضوء القمر الذي

ينسكب عليها، ومن الخطوط التي تلامسها مثل مداعبات أفلتت من العقاب. حين تغفو القريبة كاف، لا يعود في الكون سوانا. لشدة ما كان نومها عميقاً، لا أتردد في لثم شفتيها. أما نوم أمل فرائعة من الروائع. ألف مرة ارتعشت روحي بسبب حاجتي للإمساك بيدها، ولكني لم أنسق لحاجتي. منذ رحيل القريبة كاف، لا أجد في أي مكان عذراً لإغواءاتي.

كالسنونوة المتقلبة، بربيعها الذي تتقلَّده على كتفها، يرحل شقيقي مع انبلاج الفجر. أرى الأصوات والضحكات والنور بشعاعات مكتملة، والهامات كذيول البخار، وقصة من قصص الجن تنسلخ عن الجدران وتهجر الدارة. كأن السيارة التي تبتعد شفطتها. لا يدوم أكثر الأحلام جنوناً سوى المدة التي تستغرقها تنهيدة، يحوله أبسط الأمور إلى يوتوبيا. بعد أن يتلاشى هدير السيارة، يقفر الأفق.

أرمق أمي التي تلوح بمنديلها عند المدخل؛ ويغذي حزنها حقدي. أتوسل إليها في قرارة نفسي: ـ التفتي، أرجوك،التفتي. أماه، إنها ليست نهاية العالم، يوجد في العالم سواه. حباً بالله، إلتفتي، وانظري قليلاً إلى هذه الناحية...

لا تلتفت.

في البعيد، تخال الشمس نفسها تجلياً إلهياً؛ أتحداها أن تضيء عيني أمي. ثمة عتمات قد تقاوم حتى لهيب الجحيم؛ عتمة الروح البشرية أغورها، وحتى أصابع الرب لن تصل إليها. راحت الريح تقوم بمقالبها متشيطنة، فتشعث الأشجار، وتهز الدالية، وتحرر قفراناً من الغبار على الدروب، وتجعل آلاف الزوبعات تهبُّ في كوب ماء.

تهالكت أمي على إحدى درجات السلم، وأمسكت برأسها بين راحتيها. يمسك المرء دائماً برأسه بين راحتيه حين يفلت منه أمر ما. ماذا تعرف أمي عن الألم؟ إبن يرحل؟ بريد لا يصل؟ لأنني أتحسس عذابها بوضوح، أمنع نفسي من التعاطف معها.

أتمترس وراء نافذتي. يحلو لي أن أراقب أسى أمي. إنها من اللحظات النادرة التي يخالجني فيها الإحساس أنها من لحم ودم. لكم من الوقت بعد؟ عما قريب، ستعود لتنتصب على قدميها كما ينهض المرء من عثرة أو من كبوة، وقد تعوَّدت على الشدة، واعتزمت أن تتسامى على لحظات ضعفها لكي لا تستعرض نفسها بعد اليوم. وفجأة، إذ فطنت لما يخطر ببالي، التفتت صوب نافذتي.

لا أدري إذا كانت تلمحني، إلا أن رقبتي اقشعرت بسبب النظرة التي حدجتني بها. فالتصقتُ بالحائط وتضاءلتُ:

قهقهتْ القريبة كاف، رغماً عنها، خلف المرآة: قه! قه! قه!

II

هنا تتحطم القبب والقناطر (...)في الصراع: ويتقاتل النور والظلفي مجهود إلهي.
نيتشههكذا تكلم زرادشت

12

ها قد عاد يوم الجمعة بنوبات صداعه وتثاؤباته المعلَّقة. إنه يوم مأساوي من الغثاثة، خاوياً كالصوم، خائباً مثل الليالي البيضاء. لا يستعد أي موكب جنائزي لاجتياز غفلته، ويحصل ذلك مثل ضيق إضافي لتحميل الشدائد البيتية.
خطر لي أن أذهب إلى مزرعة قديمة مهجورة، وأن أتحدى البئر الذي يبقى فيه ذهني أسيراً لحركة طفولية... ـ بادرتني القريبة كاف: **"أتحداك!"**. لم أجرؤ.
تجترني غرفتي كتأنيب الضمير؛ تخصِّب كَرَبي خزائنها الغليظة، وشعاراتها البرونزية، وكراسيها المنتفخة.
ما وراء الواجهة الزجاجية، ألمح التلة المزيفة؛ والحقول المعفَّنة، والأشجار الرثيثة التي تعزف فيها مزامير رياح الليل صلوات لا تطاق؛ كتل الكهول التي تجف في أشعة الشمس، وقد أمسكت أيديهم بذقونهم وارتسمت في نظراتهم نعاسات متواصلة، ثم المقبرة، في آخر الدروب، والانتظارات كلها.
أكره هذه البقعة.
لن أرتاب أبداً ما يكفي بهذه القرية التي لم يبق فيها شيء، والتي لا يكف فيها الأقزام الذين يقطنونها عن التقدم في السن بدلاً من أن يكبروا. رحل الشباب للبحث عن حيوان القارن في مكانٍ آخر، والباقون يعافون قطيعهم الهزيل وجحود الحقول. ترهلت روحهم، بات إيمانهم مثل البلية، ولم يعد لديهم ما يحبونه.
بحثت في كل مكان عن وجهٍ، عن نظرةٍ جديرة بالاهتمام، ولم أعثر على ضالتي. في دورا يتيم، حين لا يدفن أحدهم يوم الجمعة، يدفن الناس أنفسهم. بعد أداء الصلاة، لا أحد يتلكأ في الشوارع. وسرعان ما توحي البلدة بأرض شبحية تملأها الزيزان بصرصرات شريرة.
إنه الصيف. الصيف المغاربي الطويل. برمضائه العصية التي تذيب المبادرات، وسمائه الرصاصية التي تتفتت عليها الرقى والعزائم. لا تتحرك ورقة واحدة قيد أنملة، لا تُسمعُ زقزقة. تذكر أشجار الزيتون الشحيحة التي تحيط بالبساتين والأذهان بالخاضعين للتعذيب؛ ينشر التخلي الرباني حتى أبواب الجحيم، مطوقاً بؤس الذي تهالكوا ـ لطالما خشيت أشجار الزيتون، فهي أشجار ماكرة، أشجار ساحرات؛ ظلها فخ لا ينجو منه المرء ـ ؛ ثم، أبعد من الهذيان، في كل مكان على مد البصر، الصمت الذي يجهد ليحلَّ محل الزمن...
ذهبت أمي لا أدري إلى أين. لا تحتاج أن تقول لي أين هي ذاهبة. البارحة، كان عيد مولدها. وضعت زهرة على المدفأة، بالضبط حيث تضع مفاتيحها. هذا الصباح، وجدت أن الزهرة لم تفارق موضعها، مرتخية، ذابلة. القريبة كاف محظوظة. عندما تنسى ، تقابل بالحنان، وبهمسة في أذنها: لا بأس، لكأنك تذكرت، ومن ثم، ألست أجمل هدايانا . الدلاية التي دسستُها تحت وسادة أمي، كانت لي، والقريبة كاف تعلم ذلك. ولكنها لم تقل شيئاً حين شكرتها أمي عليها. اكتفت بأن شبكت

أصابعها، وتضرَّج وجهها لا خجلاً بل كما يليق بزبانية الشيطان. لم يكن للقريبة كاف مبادئ مثل الأفعى. ولكن من كان ليجرؤ على التشكيك بصدقها؟

يا الله! كم أشتاق إليها. لا اقتلاع أمضُّ من غيابها. بدونها، لست سوى كدمة تتورَّم، سوى بلية تتعفن.

لا تفلح النوافذ المشرعة في إنارتي، والكتب المبعثرة هنا وهناك لا تعني لي شيئاً. أجوب الأروقة، من حجرة إلى أخرى؛ دنستُ الغرف، وانتهكت حرمتها، وفتحت الخزائن كما يفتح المرء باباً أرضياً... لا شيء . الكون مجرد صمت يعتدي عليه نباح كلب شارد. أعرف نباح كلاب القرية كلها.

لدى الخروج من الدارة، يثير مشهد دوار يتيم الأسى، فلا حياة لمن تنادي. دوار يتيم، إنها الأبواب الغريبة الشكل، والكوى الموصدة، والحمار الذي لا يحرك ساكناً قرب عربة مقلوبة، والمقهى العربي الميت . إنه عند زاوية كل زقاق، مغلقاً، مقفلاً، مطلياً بلون برتقالي فاقع كالخطيئة.

أجتاز القرية. بدون ضجيج. بدون أن أتلكأ في أي مكان. بدون حتى أن ألتفت. أسير وأسير... حتى النهر. تهزأ مني شجرة الزيتون التي يبلغ عمرها قرناً من الزمن على الضفة الأخرى، لكأنها هدرة (2) مصروعة. كانت شجرتي ، منذ وقت طويل؛ شجرتي منذ ذلك الوقت الذي كنت أملك فيه هرّاً. في طفولتي، علقت عليها أرجوحة لاجتذاب كاف... لم تقفز كاف ابتهاجاً، لا بل استنكرت؛ أحملتني على اجتياز القرية كلها من أجل هذا؟! ـ الحبال متينة، لقد جربتُها . كانت القريبة لا تأبه للحبال. وجدت أرجوحتي تافهة. وصاحت، إذ ابتعدت خائبة، بأنني لا أتمتع بخيال أكثر من جواد رديء. لم أصدق. لم أدرك ما جرى. كنت مرعوباً بقدر ما كنت مصعوقاً. خاشعاً أسفل شجرتي، بذقني الذي يتدلى على عنقي، ولئلا أعاني وطأة نظرتها، اضطررت للانتظار حتى قدوم الليل لأعود إلى الدار.

لاحقاً، جاء صبية عفاريت نهمة ضحكاتهم وممتلئة مناخيرهم بفتائل المخاط الحلزونية لاجتياح أرجوحتي. من نافذتي، رأيتهم يفعلون كما ينظر مزرابٌ إلى حفرة مبقورة.

في تلك الفترة، بدأت أرهب أشجار الزيتون.

جلست في أسفل الشجرة، وأغمضت عيني. انقضت ساعة، وربما ساعتان؛ في كثبان وحدتي، يحتل الزمن الصدارة ولكنه لا يكتسب أهمية. دغدغت نسمة الأجمات. في البعيد، تهيأت الشمس للفظ أنفاسها؛ تهاوت ببطء، وتخوزقت على قمة الجبل، بدون صرخة أو اختلاجة، سافحة حولها ذرَّات متجمرة. بعد قليل، سوف يلهث القيظ؛ وعلى الناس الخروج من جحورهم، وقد تقنفذت أذهانهم بأحلام مبهمة. بعد قليل، سوف يجتاح الأولاد الساحة، يزعقون ويعيثون فيها فساداً، أعداء للأشجار بقدر الماعز، قاتلين للكهول مثل عسر هضم. وسوف يستيقظ المقهى على صوت أحجار الدومينو، وفي رأسي، سوف يتسبب صخبه بمزيد من الفزع للبوابة التي تئن في الظلام. بعد قليل، ستختفي الظلال التي تتمدد تمدداً لا حدود له؛ وسأخشى يديَّ، والارتعاشات التي تخدش حساسياتي، وذلك الشعور الذي يصعقني حين يفلت مني إدراك الأمور...

ولمحتها! لفظتها سيارة، بشعرها الأشعث، والحجاب الملفوف حول ساقيها. توسلت، صرخت، تشبثت بالأبواب؛ ولكن السائق دفعها بعيداً. حاولت أن تتعلق بذراعه، ركضت، وركضت، ثم

توقفت، متهالكة، مرهقة، مهزومة... واختفت السيارة وراء جدار صغير. أمسكت الشابة برأسها بين يديها وتهالكت. والغريب في الأمر أن القرية تولي لنا ظهرها.

13

قلت لها: ـ لا يقتضي الحذر البقاء في هذه النواحي.

جفلت، وأخفضت تنورتها، وهي تراني أظهر مثل الجني أمامها. كانت قريبتي تمقت أن تراني أظهر على هذا النحو. كالجني . مهما حاولت أن تهرب، كنت أباغتها دائماً. كنت أعرف عن ظهر قلب مخابئها، وألعاب منديلها، وعاداتها السيئة، ولكني لا أفعل لأفضح أمرها أو لأكون فظاً معها، لم أكن أراقبها أو أتابعها، يكفيني أن أفكر فيها، فتحضر أمامي، بكل بساطة، لكأنني أخترعها بيديَّ.

رمقتني الفتاة. كانت تنورتها التي لم تصلحها جيداً تضايقني. حاولت أن أغضَّ الطرف فلم أفلح.

نظرت حولها، مفزوعة؛ يداها تتململان. شحوبي يقض مضجعها؛ إنه لوني الطبيعي، لم يفلح الأطباء يوماً في تبرير ذلك.

ـ لا تخشي شيئاً.

هذه المرة، يبدو أن وجهي الطفولي أشاع في نفسها الطمأنينة. كان مدرسي يعترف لي أنه يراني وسيماً، جميلاً مثل البورسلين؛ وكان صوته يتهدج تهدجاً غريباً وهو يكلمني على هذا النحو.

أشرت إلى الدارة. كانت متنحية عن القرية قليلاً، كما لو أن المستعمر السابق كان يحرص على الاحتفاظ ببعض المسافة.

ـ إنني أسكن هناك.

لمَّت حجابها، نهضت، وهمَّت بالانصراف. أمسكت بيدها، لم أتعرف إلى يدي، فقد فوجئت بحركتي. أتاني صوتي من مكان بعيد جداً في لهاث:

ـ أرجوك...

ـ تأخر الوقت. يجب أن أعود إلى بيتي. هلا تساعدني؟

أصابني سؤالها بصدمة كهربائية. لم يسبق أن طلب أحدهم مساعدتي. وحدها القريبة كاف كانت تتوسل إلي أن أساعدها لتسلق الخزانة. كانت تلك فكرتها؛ تريد أن تتربع على عرش، أن تتفرْعَن كالسلطانة . لم أكن حريصاً على مجاراتها في لعبتها، فالأمر أخطر مما ينبغي. أصرَّت على موقفها. خدشت قدمها خدي، لم تنتبه لما فعلت. كانت مسحورة بعرشها، تعشق أن ترى الكون تحت قدميها. لم تتردد، إذ باغتها أحدهم وهي جاثمة فوق الخزانة، في أن تدل عليَّ بالبنان: إنه هو، لم أكن أريد، لقد أرغمني.

لماذا كانت القريبة كاف تكذب طوال الوقت؟

ـ ألا تمر حافلة من هنا؟

ـ لا أظن.

ـ أو من بوسعه أن يقلّني؟ سأدفع له.

ـ أكره القيادة؛ والسيارات توترني. يجب ألّا تبقي في هذه النواحي، فأهالي القرية يكرهون الغرباء.

حفر صوتي العديم النبرة رقبتها.

عاندت: ـ لمحت سيارة أجرة، منذ قليل.

ـ أبداً، لا سيارة أجرة بعد الغروب. لا أحد يسافر ليلاً هنا، فهذا يجلب الشؤم. لا بد من التريث حتى الصباح. لو شئت، بوسعك أن تأتي إلى الدارة.
ترددت.
ـ إذا كنت متوجسة، فتوجهي إلى السكة. لعل شاحنة تمر.
ابتعدت، خائباً. عندما كانت القريبة كاف تتردد، يعني ذلك أنها ترفض؛ لقد علمتني ألا ألح في الطلب.
بعد حوالى مئة خطوة، سمعتها تلهث خلفي.
ـ لا تتركني.
ـ إنني أدعك وشأنك فقط.
انغرزت أصابعها في معصمي، وأوجعتني.
قالت لي: ـ أنا أثق بك.
بعيداً جداً، في منتصف طريق اللاعودة، أطلق حمار حشرجةً، سرعان ما لحق بها نباح الكلاب الشاردة. اختفت الشمس، واتشحت القرية بالسواد، وامتزجت به كلياً. وحدها الدارة تبرز في السماء، مثل بلد عدو.
إنه يوم جمعة آخر يهرب بسرعة مثل خفاش. ها هم الصبية العفاريت يحتشدون في الزوايا، ولغط السهرات ينذر بأنه سيكون عاصفاً.

14

رافقتها إلى غرفتها ، وانسحبت حريصاً على إغلاق الباب ورائي. لطالما استهواني هذا الانسحاب منذ الوقت الذي كانت تتمتع فيه أمي بخدم وحشم. فيأتي الخادم ينهمك حول سريري، ماهراً وفعالاً. ثم ينسحب القهقرى، وقد غضَّ الطرف؛ كانت في موقفه الخاضع صفاقة لم أفلح في تحديدها أو تبريرها. كان بالكاد يتحدث، ويبقى مترصداً أقل إيماءة أو أمر. وحين تنهره أمي، يتصلب في إجلال أزدريه لشدة وقاحته.
في ذلك المساء، وإذ انسحبت من غرفة الغريبة، ثم عدت إليها بصينية تحمل وجبة باردة، تراءى في إحساس ملتبس أنني أخرق لياقة معينة، وبالتالي، أثير الازدراء.
وضعت الصينية على المنضدة قرب السرير.
شكرتني الشابة.
ـ لو شئت أن تعدي بعض الطعام، لا تترددي. إنني أخرق في استعمال النار.
ـ سأكتفي بما أحضرته لي.
كانت تجلس على حافة السرير، قدماها على الأرض، ويداها مشبوكتان على ركبتيها. بين الحين والآخر، ترفع عينيها لترى الأبهة التي تحاصرها، منبهرة ومرهوبة في آن. على ما يبدو، لم تكن السقوف العالية مألوفة لها. حارت في رحابة الغرفة، والثريا الهائلة التي تتدفق كالشلال فوقها، والفريسك الغسقية الانعكاسات.
أوضحت لها: ـ هذه غرفة أمين.
لا يبدو أنها قاست حجم التدنيس، ولم تفطن إليه على الإطلاق؛ لم يوقظها التأثر في نبرتي. لا تحرك ساكناً منذ بعض الوقت خشية بعثرة الأشياء عند أقل ارتعاشة. انزلقت عيناها على الأثاث، وكأن المكان يوحي لها بتحفظ شديد. من جهتي، كنت أرتجف تحت وطأة التدنيس، وللمرة الأولى ، لم أتهالك.
ظلت الفتاة تبتسم. غالباً ما يبتسم المرء حين لا يدرك ما في الأمر. يفضح حياؤها وثيابها الرثيثة في داخلها هوية الفلاحة التي تموِّهها زينة خرقاء تكاد تكون تهريجية. فخاتمها كمد منذ وقت طويل لمعانه الزائف؛ وقرطاها تعيسان بسبب براءتهما. إنها ريفية بائسة أظافرها مقضومة، وفتاة معذبة كان بوسعها أن تكون عادية لو لم تحمل، في أعماق نظرتها، بصمة تنازلات خسيسة.
ـ إسترخي يا آنسة.
ـ إنني مسترخية.
ـ حسناً.
خرجتُ من الغرفة.
حين رجعت لآخذ الطبق، ألفيتها في الموقع نفسه، والهيئة نفسها، متأملة اللوحة المشتعلة. لم تتذوق شيئاً من الصينية.
ـ لم تتناولي شيئاً.

ـ لست جائعة.
ـ ربما ترغبين بشيء آخر...
ـ كلا، كلا، حقاً، لا تزعج نفسك؛ لست جائعة.
وابتسمت.
مرة أخرى!
لا سوء تفاهم أسوأ من ابتسامة امرأة؛ إنها لذة سامة، ومصيدة بارعة للأغبياء... كانت ابتسامة القريبة كاف تقض مضجعي. تعني أن الفخ بات جاهزاً. وحتى لو احتطت كل الحيطة، وامتنعت عن الشرود، لما استطعت على الإطلاق تجنب الوقوع فيه.
حملت الصينية.
ـ سيكون الليل طويلاً. لو احتجت أي شيء، دقي مرتين على الحائط. أنا بقربك.
ـ شكراً، هذا من لطفك!
إنه رفع كلفة مشين!
ليتها تجشَّمت عناء تذوق الوجبة التي أعددتها لها بعناية لكانت أمي عجبتْ لها.
سارعت إلى الخروج، وعدت إلى غرفتي لموافاة نهام سريري، وتقشف السقف و... الانتظار، تلك الدودة الوحيدة الأخرى، المثابرة والأخطبوطية الأطراف، التي تحفر لنفسها شقاً في تخمير غضب كان بالإمكان إعفائي منه.

15

الانتظار جزيرتي الأثيرة التي أُقصيتْ من حولها الآفاق، وجُرّدت من مفاتنها، وأقيلت من دعواتها؛ إنها سجني المؤبد، وحدي، حيث أنا السجين والسجان؛ معفي من النعمة والخلوة، سجن بدون مقصلة أو قاعة لاستقبال الزائرين، إنما فقط عقوبة أقضي مدتها بالعناد الهادئ لمتهمٍ يقاضي نفسه...

منتصف الليل...

الواحدة فجراً...

الثانية فجراً...

في الخارج، يصارع البدر لإعادة إبداع النهار فيما تتخطى الصرصرات الحدَّ المعقول.

أحدق في الثريا مستلقياً على سريري.

لا أحب الثريات؛ فبريقها الشفاف مثقل بالتكلف. أفضل الشمعدانات العسكرية الهيئة، ففتيلها يبرع في تصيُّد الفراشات الليلية في تمرينها على غرار إيكارات بائسة. في غرفتي شمعدانٌ مهيبٌ بزيِّه النحاسي. تجيد هالته المتراقصة تشويه الظلال واكتشاف الجان في قلب الزوايا. حين يتمرد رقادي أحياناً، يكفيني أن أحدق في الألسنة المتراقصة التي تتمايل على أغصانها لكي أستسلم للنعاس...

تعمَّدت هذه الليلة ألا أستنجد بالشمعدان.

هذه الليلة، لا أرغب بالنوم.

أنتظر...

لا تستحضر ذكرياتي مخلوقاً لاح لي قريباً مني مثل تلك الفتاة التي تتجاهلني في الغرفة المجاورة. وليست لدي عشيقات أصلاً، والأرجح أنني لن أعرف أياً منهن. لطالما تحاشيتهن، مشتبهاً لديهم بحيرة مريرة مثل العذاب الكامن.

فيما مضى، كان لدي هرٌّ حين كانت أشجار الزيتون تلهمني. هرٌّ يحسب لكل شيء ألف حساب؛ يتدبر أمره ليكون بمتناول يدي ويتظاهر بأن هذه الفرصة من قبيل الاحترام. لم يكن صديقي؛ كنا نتساكن، وكفى. لم أكن أشرب أو أدخن؛ كان موجوداً، ووجوده يشغلني... إلى أن خدشني يوماً. كانت حركة سخيفة مثابرة وطائشة... ومنذ ذلك الحين، اختفى.

في الرابعة عشرة، كنت أتطلع إلى عبادة قريبة لي. كان أبواها يأتيان إلى الدارة خلال الإجازة هرباً من ضوضاء المدينة. كانا ثريين، يعشقان إقامة حفلات الغداء في الهواء الطلق على ضفاف النهر، ويسرحان في البساتين، ولا يعودان قبل حلول المساء. لديهما ابنة صغيرة. وكانت هذه الإبنة هي القريبة كاف الجميلة بحدقتيها النجلاوين، وضفيرتيها الملتمعتين. كانت أنشودة مزمار، وسعادة منمنمة، تتلألأ كبحيرة من الندى. في المساء، حين تخلد إلى فراشها، ولشدة اشتياق الليل إليها، يتشح بالحزن حتى طلوع الصباح.

كنا، أنا والقريبة كاف، نفضل ارتياد مزرعة قديمة ومهجورة في الجهة الأخرى من التلة. كانت توجد أكواخ مهدمة، وحظيرة مخلَّعة الأبواب، وبئر. لم تكن الجنة بكل معنى الكلمة ولكن القريبة

كاف قادرة على أن تصنع من زريبة خاناً، ومن شبكة عنكبوت جنة معلقة. لا ألهو معها. بسبب تصرفاتي الخرقاء. أكتفي بمتابعتها، وبالابتسام حين تضحك، والاستعجال حين تركض.
وحالما تتعب، تجلس على حافة البئر، وتمضى لحظات طويلة تتقرى الهوة. فتصرخ: هوووو ! وتقهقه وسط الصدى. هذا مذهل! أليس ما ألمحه الطرف الآخر من الأرض ؟ كانت تدفعني حين أقترب لألقي نظرة. تلقي أحياناً بحجارة لسماعها تغوص في الماء، فتصدر أصواتاً كهفية!...
في أحد الأيام، وفيما كانت تزعق زعيقاً حاداً بغباء في البئر، اقتربت منها ودفعت بها في الفراغ.
عدت إلى الدار كأن شيئاً لم يكن، لا لأنني لم أدرك ماذا فعلت بل لأنني اعتبرت فقط أنه لا داعي للندم عليه.
عثر عليها في أعماق البئر، وقد كسرت إحدى ساقيها، وجحظت عيناها رعباً...
قيل لي إنها تمضي وقتها تنقل من عيادة إلى مصحة عقلية، وأن الظلمة ترعبها...
هي، بدورها، لم ألتقها ثانية.
كلما خطرت ببالي، اعتراني الحزن. ولكن أكثر ما يصيبني بالأسى أن لا أحد خامرته الشكوك بي حتى هذا اليوم.

16

دقت ساعة الحائط ثلاث مرات. دُقَّت بوضوح. رحت أذرع الغرفة بالطول والعرض، وقد شبكت ذراعي على صدري. ما الذي يؤخر الفجر، ليلة السهاد؟ ما الذي يثير الريبة بوعد يتلكأ؟ ما الذي يسحق الصبر كالهليون الغث؟... الانتظار!

الانتظار، هذه الرفيقة الخسيسة واللئيمة. إنها هي التي تعري العتمة، وتسلب الصمت، وترعب الرجال الوحيدين، وتقولب هذيانهم...

لماذا لا تدق على الحائط؟

لا بد أن تدق.

إنها لا تدق.

أخرج إلى الرواق، وأتمشى من أوله إلى آخره. في رأسي، ينعب بئر طفولتي. وتلك القريبة المغرورة التي كان الجميع يعبدها. كلما وصلت إلى دارتنا، تنبذني الأرض بأسرها. ويتمحور الاهتمام حولها فقط. أداؤها ممتاز في المدرسة... لقد حصدت كل الجوائز... إنها نابغة!... يا إلهي! ما هذا الملاك الذي مننت به علينا... ملاك... ملاك يولد في كل يوم يصنعه الخالق... وأنا؟ أنا، كنت أتعفن في مأوى العجزة؛ ولو تواريت أو اعترضت سبيلهم، ولو فزت بالقمر، وقدمته لهم على طبق، سيقولون لي أن أنتبه للطبق ولن يلحظ أحدهم القمر. فيما كانوا يدورون في فلكها، أدركت، في تلك السن التي تجهل الفلسفة، أن الأعمى ليس من لا يبصر بل من لا نبصره؛ ولا عمى أسوأ من ألا يلاحظ أحدهم وجودك.

كانت القريبة كاف ترى أن رقبتي أشبه برقبة المشنوق. فتهزأ مني، وتضطهدني بتنورتها التي تكشف ركبتيها الورديتين، تنقر في قصعة من المكسرات، ببطء، إلى ما لا نهاية، نقرات صغيرة، تنهش مثل الحيوان القارض: تسعى لإذلالي، لأن تراني أمد يدي. ما ألذها! لفرط طراوة الزبيب، لا يتسنى للمرء حتى أن يقضمه. خالتي تدللني. لقد وعدتني بمربى البلح، لي وحدي؛ فمُتْ غيظاً.

كان يبدو لي أن انتهاك حرمة مزار أقل تدنيساً من أن أتخيل نفسي أضربها. كانت الجوهرة المكنونة للأسرة، إلهتم. ولا بد من يصففون شعرها. فتدعهم القريبة كاف يفعلون، بيديها البيضاوين في قعر ثوبها، استحواذية، مدركة تماماً للمتعة التي تغدقها.

كان يقال عنها إنها ملاك.

لم تكن ملاكاً.

كانت كاف شريرة وأنانية، سامة وحقودة. بلية حقيقة. تفعل ما يحلو لها، لأنها لا تخشى أن تخيب الآمال. كانت هي التي اختلست مرطبان العسل المسروق. وكانت هي كذلك التي تفوهت بالكلمة البذيئة في الزريبة. ومع ذلك، يلتفت الجميع إلي، لا محالة، بصورة آلية.

كم أبغضهم!

كم أبغضهم!

17

دفعتُ الباب. بحقد.
استيقظتْ مفزوعة.
ـ لماذا؟
لم تستوعبْ كلامي.
ـ لماذا لم تدقي؟
ـ لا أحتاج شيئاً.
تناولت رأسي بين راحتي.
ـ ماذا؟ من تظنينني؟ من تظنين نفسك لكي تزعمي أن لا شيء ينقصك؟
ـ أنا...
ـ إخرسي! لا أحد يشعر بالاكتفاء. ثمة على الدوام حاجة في مكان ما، سهو، نقص حاد. نردِّد دائماً أن كل شيء على ما يرام، وأن كل شيء بألف خير، ولكن هذا ليس صحيحاً. سواءً عشنا في قصر أم في كوخ، سواءً لبسنا الحرير أم الأسمال، سواء أحبَّنا الآخرون أم لفظونا، لا بد أننا بحاجة إلى شيء أو إلى أحدهم. نتوسل نظرة، كلمة، إيماءة، وغالباً ما لا تستجاب أكثر صلواتنا ورعاً. لماذا؟ لأن الأمور على هذا النحو. ولا جدوى من البحث عن الثغرة؛ فالثغرة في أعماق كل واحد منا. إنها كل هذه الأسئلة التي نسألها والتي لا تقدِّمنا في شيء.
إصبعي يعطي لسخطي امتداداً:
ـ أنت نكرة. حتى هذا المساء، كنت غير موجودة. أنا الذي ارتجلتك.
خطَّت يداي الحركة التي تدلُّ على أنني أخلقها، أنني أصنعها.
ـ سوف تدقين. آمرك بأن تنادي علي.
أحسست بنفسي مهاناً، مقزَّماً. اضطرم رأسي؛ جلدتني ألسنة لهيب صَرَعيَّة، تشابكت حول كياني، وطاردتني حتى أعمق أعماق حزني؛ إنني مشعلٌ حي، وألحق بنفسي ألماً فظيعاً.
ركعت على السرير، زائغة، وكأنها تصادفني عند منعطف كابوس.
ـ لا ترمقيني بهذه النظرة. أرجوك، لا تنظري إلي هكذا. ما العيب في أن يرغب المرء بأن يكون مفيداً؟
قبضت أصابعي على عنقها، وراحت تهزه.
ـ ما العيب في ذلك؟
ـ لا شيء...
ـ ماذا قلت؟
ـ لا شيء...
ـ لم أسمع.
ـ لا شيء!

ـ فلماذا لا تدقين؟ لقد تكدَّرت بسببك. أهكذا تعاملين من تثقين به؟
تاهت في يديها، ولاحظت جفاف شفتيها، فمررت عليهما أكثر من مرة لساناً أزرق.
ـ لم أشأ إزعاجك.
ـ لما أزعجتني لو فعلت.
حررتها أصابعي وانزلقت على وجنتيها، ولاطفتها. قوقعت رقبتها بين كتفيها؛ وانقبض جفناها كلما لامستها يداي، كأنها تتوقع أن أسلخ جلدها.
ـ يجب أن تناديني. هذا ضروري. لا ريب أن المرء يشعر بالحرج حين لا يكون في بيته، ولا يرغب بالتطاول على ضيافة الناس، وعنايتهم به، لا بل إن هذا الموقف محمود ولائق. ولكن الوضع مختلف هنا، معي. أنا أبسط ما يكون، أتفهمين؟
ـ حسناً... إهدأ.
ـ أنا هادئ. ومن قال لك إنني لست كذلك؟ أنظري إلى يدي، إنهما لا ترتعشان، ونبرتي هادئة. إنني هادئ كل الهدوء؛ ولا سبب يدعوني لئلا أكون كذلك.
عادت يدي لتطبق على عنقها.
ـ لا يجدر بالمرء أن يتفوه بما لا يقدر عواقبه. إنه تصرف طائش، ويفتقر إلى التعقل.
قبضت عليها ثانية من حلقها، بعنف. صرخت، وهلعت، وحاولت الإفلات من قبضتي.
وضعت إصبعي على فمي وقلت لها: صه!
يزعجني الصراخ. يتراءى لي أنني أسمع رأسي يتشظَّى. أكره الضجيج، لا شيء لا يطاق مثل الضجيج. حذرتها مراراً وتكراراً بهذا الشأن، ولكن القريبة كاف لم تعبأ بتحذيراتي، والأسوأ من ذلك أنها ضاعفت نشازها، لمجرد إثارة أعصابي. راحت تزعق عمداً داخل البئر، محدثة ضجيجاً يرهب له الشيطان.
ـ صَهْ!
انكفأت، وتخشبت ملتصقة بالحائط، وأسفت لأنها لا تستطيع اختراقه.
ـ سوف تدقين.
ـ أجل، أجل...
دقَّتْ على الحائط.
ـ ليس على الفور. لا شيء يدعو للعجلة، لدينا كل الوقت أمامنا. إنها الثالثة فجراً. سأعود أولاً إلى غرفتي. تريثي قليلاً قبل أن تدقي. لا تدقي أكثر من مرتين. إنني شخص متيقظ بشكل خاص. لا أقبل أن يكرر لي أحدهم النداء، وإلا أحسست بقيمتي تتضاءل. سآتي حالاً، فالدقة من شيم الآلهة. ستقولين... ما تشائين. أنك ما زلت جائعة، أو أنك تودين الثرثرة قليلاً، أو أنك ظمآنة، فأذهب لإحضار كوب من الماء لك. ولو شئت، أحضر لك النبع في قبضة يدي، فكوني على ثقة أنك لا تزعجينني البتة.
اكتشفت أصابعي إلهاماً في شعرها؛ كلما لامسته، تفتقت لدي موهبة؛ إنني الحنان.
ـ لن تقولي شكراً.
وافقت بإيماءة من رأسها، واختنق الكلام في حلقها.

ـ لن تقولي شيئاً، فالمرأة لا تكون خفرة إلا حين تصمت.
سالت الدموع على وجنتيها. أحسست بها تسيل على وجنتي. إنها لحظة من المهابة الشديدة. فلم أهون عليها. لا يزعج المرء امرأة تبكي بل يتعظ من بكائها.
أشعر بالغرابة لكأنني أغفر، وأقدر أن أتصالح وأشفق وأشارك. لعل هذا هو الأمل: أن يكون المرء مفيداً، أن يكون ملحوظاً، أن يكون... كانت أمي تطردني حين أعرض عليها مساعدتي. موقفها مريع، متطرف... لا تلمس هذه المزهرية. سوف تقلبها. مثل الآخرين. لست أخرق؛ أنا شارد الذهن. يحدث أحياناً أن أنسى الغرض الذي أمسك به، فيفلت مني. لعل هذا ما جرى على حافة البئر. ربما أفلتت كاف مني.
قلت للفتاة: ـ لا تتحركي.
شدت قبضتيها على صدرها، ممتقعة الوجه، وراحت تشهق شهقات قصيرة، مطلقة خواراً مديداً.
ـ **صَهْ!**
خنقتها صرختي، وأرغمتها على التكوم في زاوية الحجرة.
ـ سأخرج... لقد خرجت. لا تنسي، أنا في الغرفة المجاورة.

18

فجأة، سمعت بابها يفتح.
هرعت في الحال.
هربت نحو السلم.
ـ توقفي...
هبطت السلم، تعثرت، وتداعت.
بقيت في أعلى السلم، مثل أسطورة على سحابتها، بذراعي الممدودتين بحركة مسرحية. انسكب ندائي الجبار على الكوكب بأسره:
تعاااااااالي!
لو اختار النهار والليل أن يكونا الأفول الذي أغشى نظرتي، لو استلهم الرعد حركتي السامية ليصرعني، لو انتظرت أمي هذه اللحظة الممدة للدخول، لغفرت كل شيء على ما أظن.
زحفت نحو البوابة الموصدة، وخبطت عليها بقبضتيها. عودي... اصعدي إلى غرفتك. رفضت الإصغاء إلي، وسماع صوت العقل. يغمرني الغضب. اقتربت منها، انتزعتها من شعرها، رميتها، ودست عليها. صرخت، وتوسلت، وقاومت، وقبلت يدي، وقدمي، وهوت إلى الحضيض... لا تقتلني. الرحمة، الرحمة، لم أفعل لك شيئاً... الجاحدة! أمعنتُ في تعنيفها ضاحكاً. ترعبني ضحكتي. لا أذكر أنني ضحكت مرة في حياتي... تزحف حتى السلم، ترفع نفسها بمشقة على درجاته. يرتعش الدم على شفتيها المجروحتين، يتدلى على ذقنها؛ لا تفلح يداها في الاستدلال... هيا، اصعدي... أرجوك،... أرجوك، عودي إلى غرفتك. نهضت، تشبثت بالدرابزين مترنحة، وقد تحوَّل شعرها إلى أنقاض على ظهرها.
لا أتعرَّف إليها.
تترنح أمامي، شبحاً مثيراً للشفقة؛ تخيِّب أملي.
حبستها في غرفتها، وأوصدت بابها بالمفتاح.

19

دقتْ.
خربشتان بالكاد مسموعتان.
أستطيع أن أسمع من مسافة بعيدة الخبب السريع لليربوع الهارب. علمتني فترات سهادي أن أتنبه لأقل هسهسة، لأقل نفس في الدار. لا شيء يفوتني من العلية إلى القبو. برهافتي المستنفرة، كنت لألوم نفسي لو أخذت على حين غرة. لم أكن في بيتي داخل الدار؛ كنت في أرض مجهولة.
ذهبت لموافاتها.
كانت قابعة في زاويتها، ويداها بين فخذيها، وصدريتها ملطخة بالدم.
ـ خيل إلي أنك تناديني.
أومأت موافقة.
ـ قلت لنفسي إن أحدهم يدق على الحائط. لم أخطئ الظن.
تمخطت على معصمها وهي تبتلع لعابها، ونفت بإيماءة من رأسها. تحفر الدموع في وجهها أخاديد مثل آثار سوط. آسفٌ لأننا بلغنا هذا الحد. لكان بوسعها أن تدعني أخدمها كالسلطانة. لكان بوسعها أن تقهقه عالياً الآن. ولكنها لم تعرف أن تقتنص فرصتها. ولعلها بائسة لهذا السبب، وتحاول البقاء بفضل القيام بتنازلات. غالباً ما لا يدرك المرء الفرص التي تبرز أمامه، لا لأننا لا نراها بل لأننا لا نؤمن بها. الصدفة والقدر، مسألة ذهنية، ولا يجدر بأولئك الذين يعضون أصابعهم إلا أن يلوموا أنفسهم.
ـ أتحتاجين شيئاً؟
بلعت ريقها بتشنج قبل الموافقة. بدون اقتناع. بدون حتى أن تنظر إلى عيني مباشرة. أخشى أن تكون قد فقدت ثقتها بي. سيكون ذلك مؤسفاً حقاً، سيكون ورطة مؤسفة.
ساعدتها:
ـ الطقس حار.
تذكرتْ : أنا... أنا ظمآنة.
وأخيراً، جاء الفرج!
هرعت إلى المطبخ، منعتقاً، متخففاً من شياطيني، وعدت بصينية وضعت عليها دورقاً مكتملاً مثل البدر. لم تتنبه إلى سمو الأول أو إلى إنجاز الآخر. كانت مخيبة بفظاظتها، سجينة في هلعها، وقد التصق ذقنها بعنقها.
ناولتها الماء. بمتعة صادقة. منزهاً عن أية غاية. نفحتْ في نفسي يدها التي تقبل كوب الماء الإحساس باكتمال لا يقاس.
شربت، وغُصَّت.
رمقتها تروي ظمأها، كما يرمق فنان الأنوار المطمئنة لعبقريته تولد على لوحته. أنا سعيد.
ـ أترين؟ كان الأمر في منتهى البساطة.

ناولتني الكوب، وقد أخفضت بصرها.
قلت لها قبل أن أنصرف:
ـ دقي قدر ما تشائين. هذا لا يزعجني.

20

تزمجر الريح في الأروقة، لكأنها مستذئبة يستثيرها البدر.
يبدو لي، بين الحين والآخر، أنني أراها تقتحم غرفتي، تحوم فوق سريري، قبل أن توافي، في تحليقة جامحة، الأرواح الضاربة في البهو؛ أسمعها هازئة ومتواطئة، تضطهد الستائر، تنبش الخزانات، تتلاعب بالأبواب المصطفقة. وفي الخارج، تصر البوابة صريراً مسعوراً، وتقتلع الأشجار شعرها في اختلاجات مروعة... إنني ممدد على سريري، وقد تشابكت يداي تحت ذقني؛ أنتظر...
يشبه رأسي شاطئاً ساكناً تأتي لتتلاشى عليه مُويْجات خاطفة...
كدتُ أن أغفو.
نبهتني بعض الأصوات المتنافرة المبهمة. عدت إليها، ففاجأتها تحاول أن تفتح النافذة. كان بعض الجوارير يرقد على الأرض، مأساوياً كالحطام... شعرت بالاستياء.
تسمَّرت في مكانها، وقد فغرت فمها صرخة محظورة.
سألتها، متودداً:، ماذا يجري؟
- دعني أنصرف. أتوسل إليك، دعني أعود إلى بيتي.
- هذا بيتك.
اختلجت كتفاها الهزيلتان؛ وغارت بوجهها بين راحتيها، مغتاظة، تعسة، مذهولة.
راحت تئن: - هذا لا يعقل. ثمة شيء ليس على ما يرام؛ يجب أن أصحو... وأضافت : - بالضبط، إنه سوء تفاهم. سوف تستيقظين يا فتاة. إنه مجرد كابوس، لا تتخاذلي.
اقتربت منها، متأثراً بمناجاتها، مشرع الذراعين، مستعداً للمصالحة معها...
قاطعتني، وهي تنتفض تقززاً: - لا تقترب مني. لا أريد أن تلمسني، أن تضع قوائمك القذرة علي. لم أعد أطيق ذلك.
أمسكت بها من كتفيها. كما يمسك المرء بصديق. كما كان يمسكني شقيقي فيما مضى. صدَّتني، وهربت نحو الباب. مع ذلك، فرفضها لي يجرحني، ولا ألومها على ذلك. أتفهم موقفها. لا أحاول اللحاق بها، وأقله مطاردتها. سأذهب فقط لإحضارها. خطوتي هادئة، متزنة؛ إنني هادئ.
قلت لها بلا نقمة: - لست وحشاً. لست مثل الجميع. لديّ نفس جريحة وكبرياء. ما تفعلينه ليس مستحباً.
بلغت في هروبها المطبخ، لم تجد منفذاً، قلبت كرسياً لشدة غيظها، وقد أطبق عليها الفخ، وتمترست خلف الطاولة.
- لماذا تهربين مني كأنني مصاب بالطاعون؟ هل أخطأت معك، وطالبتك بأي شيء...
- هذا غير صحيح، لا بد أن أستيقظ...
- أخدمك وتشيحين عني؛ أخاطبك، ولا تصغين إلي؛ أستميتُ لأكون مفيداً، وتتصرفين كأني غير موجود. ما العيب في أن يرغب المرء بإسداء خدمة، أو بمد يد العون، أو التصرف بأريحية؟ لا

أريد فقط أن أظن بأنني أتمتع بالإنسانية مثل أي كان.
ـ أنت مجنون... مجنون!
تلك الكلمة!
ذلك اللفظ الأشبه بالدوامة، الخسيس، الاعتباطي.
قلت لها والحزن يعتصر قلبي: ـ أترين؟
كانت القريبة كاف تقهقه عالياً. فقد خدشني هرِّي للتو، بحركة تعسة، دنيئة، قذرة. كانت القريبة كاف تمرح في البساتين، تعيد إليها ما سلبه التآكل منها. كانت التلة تستيقظ في ضحكاتها؛ فلا تعود الأشجار تلوح كالمشانق، والصخور كالأولياء، والنهر كالخندق التافه... حين لا تكون كاف هنا، يبطل كل شيء؛ تصبح الشمس خدشاً، والريح تنهيدة، ويرتبك الأولياء الصالحون...ما كان يجدر بهرِّي أن يضع مخالبه القذرة علي. لم يكن سوى من ذوات الأربع، كالزقاق الذي يسير وراء التيار؛ كان أقل من ذلك؛ كنت أصنعه وأفككه على هوى الظروف. بوسعه أن يموت جوعاً أو أن تدهسه سيارة... كانت كاف تنتقص من قيمتي: لن أتزوج يوماً شخصاً مزعجاً مثلك. سأتزوج أميراً مغربياً. ستكون لي عربة فخمة مرصعة بالجواهر يعتليها خادمان صفيقان، وقصر شاسع تنتشر في أرجائه النوافير، وعدد من الخصيان يضاهي عدد المحظيات. ستنتظم فيه حفلة كل ليلة، ومهرجان للفروسية كل صباح، وستموت بغيظك. ولو جئت إلي متوسلاً، سأوعز إلى كل حراسي بطردك؛ ولو باغتك أحدهم تحول حول حدائقي، سوف يأمر السلطان بضرب عنقك... وحدها بنت ملعونة تتزوج شاباً يلزم الصمت طوال الوقت... عندما كانت كاف تصرفني على هذا النحو، تهوي السماء على رأسي؛ ويبدو لي أنني أفسد الأرض بمجرد وقوفي منتصباً عليها... كم كانت جميلة! لن أردِّد ذلك بما فيه الكفاية أبداً. كانت النشوة ترتوي من مناهل عينيها. حين تركض الظبية كاف بضفيرتيها اللتين تفتحتا كالزهور بفضل الأشرطة، يرتفع ثوبها فيلمح المرء سروالها الداخلي الأزرق كقطعة من البحر ملتصقة ببشرتها... ليتها كانت لائقة، ولكنه مطلبٌ يفوق قدرتها على تلبيته. كان الشيطان يسكن عقلها، والكذب طبيعتها الثانية. هي التي كسرت المزهرية الصينية... فناحت: لو لم أخفض رأسي، لشوَّهني بها. كانت دموع قريبتي من الفن الرفيع، ولما قاومها حتى عوليس. انفجرت أمي وهي تشدُّ أذني قبل أن تصفعني: نبهتك مراراً ألا تلمس هذه المزهرية. فعلت ذلك على مرأى ومسمع منها، وكانت هي تتلذذ. تناولت، احتجاجاً على ذلك، شظية من المزهرية وابتلعتها... مجنون، أنت مجنون...
ـ أترين؟... بادرتها بصوتي العديم النبرة، الذي يكاد يسعى إلى الوفاق... لماذا تتفوَّهين بأمور لا تقيسين أبعادها؟... ومن ثم، ماذا تعرفين، أنت، عن الجنون؟
انكفأت. ماذا تأمل وهي تتراجع؟ أن تسترد رباطة جأشها؟ أن تسحب ما قالته تواً؟ ثمة اندفاعات لا يصوِّبها المرء بل يتحمل مسؤوليتها. وفجأة، تحطم ضياء عينيها كالمرآة؛ شبكتها القاطعة تشجُّ دماغي؛ أظن أنني أخضع لصدمة كهربائية. هرعت يدي من تلقاء نفسها لتناول السكين. أدرك افتقار حركتي إلى التوازن، والمأساة التي تتربَّص بها. في مكان ما، وسط الفوضى، تمنيتُ لو أرخي قبضتي، ولكني لم ألح. النصل يلتمع وذراعي يتمرَّد. كان ما جرى مقدَّراً. يستسلم الجسد مع

الطعنة الأولى، بسهولة تثير الاستهجان. لا شيء أكثر هشاشة من الحياة؛ يا لهشاشتها! استجابة غريزية، استجابة واحدة تكفي، والاستجابات التالية التي تليها تفعل ذلك غيظاً.
واصلتُ الطعن دهراً. يكاد ذراعي ينخلع بسبب اندفاعه المحموم. لم تفلح في أن أصحو من سكرتي لا الدماء التي لطخت الحائط، وسالت على ثيابي، ولا نظرة الفتاة التي تخثرت، ولا التعبير الذي ارتسم على وجهها المصعوق، ولا البوابة التي لم تعد تقرقع خارجاً، ولا الصمت الذي أعقب ذلك.
لا أكف أردد، في أعماق محنتي، أنني ما كنت لأغير شيئاً حتى لو شئت ذلك حقاً.

صدر للمؤلف

في سلسلة فسيفساء عن دار الفارابي وسيديا

الصدمة، 2007
أشباح الجحيم، 2007
سنونوات كابول، 2007
مكر الكلمات، 2011
القريبة كاف، 2011

الـهوامش

(1)nessus ou nessos هو في الميثولوجيا اليةنانية سنتور, أي كائن خرافي نصفه إنسان و نصفه فرس, قتله البطل هيراقليس لانه حاول الاعتداء على زوجته ديجانيز. وقد أعطى نيسوس,وهو يلفظ أنفاسه, رداءه إلى ديجانير كتعويذة من المفترض أن تضمن لها إخلاص زوجها. ولكن آلاما مبرحة انتابت هيراقليس, حين وضع هذا الرداء على جسده, فانتحر. (المترجمة)

(2) الهدرة هي أفعوان ذو رؤوس تسعة. (المترجمة)

القريبة كاف

مسكون بموت والده، وتخلّي والدته عنه، وغياب شقيقه الحبيب، استسلم الشاب الجزائري لمشاعره نحو نسيبته أو ابنة عمه الحسناء، فتحولت مشاعره الإنسانية في الحبّ، بسرعة كبيرة، إلى هاجس...

كيف يبلغ مأربه من هذه الشابة المزاجية، القريبة والمستحيلة في آن؟ لقد نشأت بين المراهقين حالة عدائية هي الحالة ذاتها التي تنشأ ما بين الضحية والجزّار. ومن أجل تهدئة آلامه عزم العاشق على أن ينتقم من تلك اللامبالية، وغير المكترثة. فهل يعمد إلى تسميمها أو اغتصابها، أو قتلها؟ في سكون هذا الدوار الخانق المحرق تولّدت المأساة...

ياسمينة خضرا كاتب جزائري طبقت شُهرته الآفاق في السنوات الأخيرة، وقد تُرجمت رواياته إلى أكثر من عشرين لغة. ويعرفه قرّاء العربية بفضل روايات «الصدمة، سنونوات كابول، أشباح الجحيم ...». إنه يكشف، التاريخ المعاصر دون هوادة ويناضل من أجل انتصار الحوار الحضاري بين الشرق والغرب.

ترجمة: نهلة بيضون


ISBN 978-9953-71-652-7
9 789953 716527